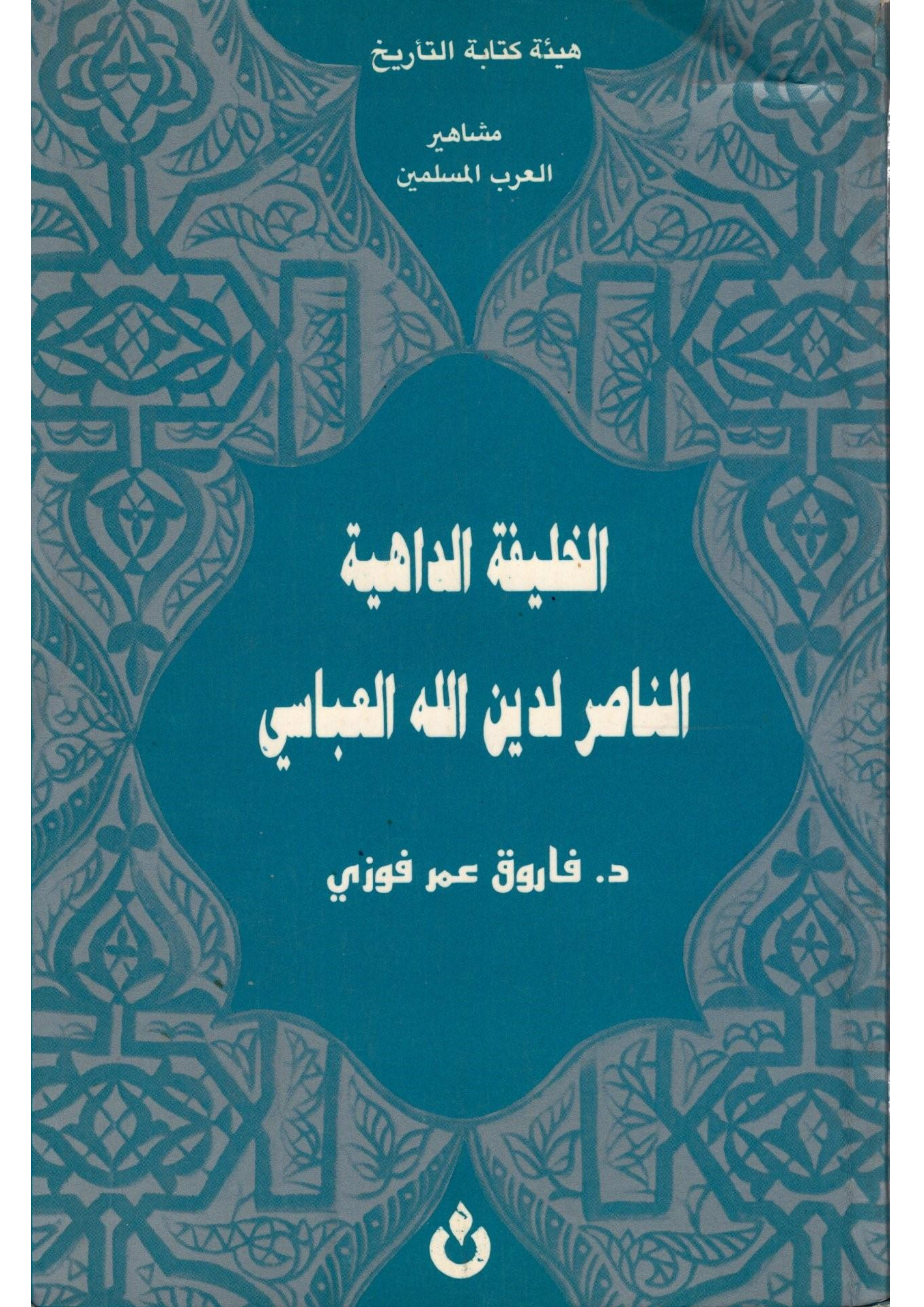


هيئة كتابة التأريخ

مشاهير
العرب المسلمين

الخليفة الداهية
الناصر لدين الله العباسي

د. فاروق عمر فوزي

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد سنة ١٩٨٩





طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة . « آفاق عربية »
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنـــوان :
العـراق ـ بغـداد ـ اعظميـة
ص.ب. ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

محنة كتابة التاريخ

مشاهير العرب المسلمين

الخليفة الداهية

الناصر لدين الله العباسي

٥٧٥هـ/١١٨٩م - ٦٢٢هـ/١٢٢٥م

الدكتور

فاروق عمر فوزي

الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩

المحتويات

« كان الناصر من أفاضل الخلفاء وأعيانهم ، بصـيراً بالأمور مجرّباً سائساً مهيباً مقداماً عارفا شجاعا متأيداً حاد الخاطر والنادرة متوقد الذكاء والفطنة بليغاً غير مدافع عن فضيلة علم ولا نادرة فهم يفاوض العلماء مفاوضة خبير ويمارس الأمور السلطانية ممارسة بصير » .

كتاب الفخري ، ص٢٦٠

« في سنة ٦٠٧هـ وردت رسل الخليفة الناصـر لدين الله الى ملوك الاطراف أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها ويكون انتماؤهم اليه ورعيّة كل ملك يشربون لذلك الملك ويلبسون له » .

مفرّج الكروب لابن واصل جـ٣ ص٢٠٦

مقدمـة

في سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م أصبح الخليفة الناصر لدين الله خليفة بغداد وتسلم زمام الدولة العباسـية بعد وفاة أبيـه المستضيء بأمر الله والأمور تسير من سيء الى أسوأ فالاعداء يتربصون للخلافة من الداخل والخـارج والفسـاد الاداري والسياسي قد استشرى في أجهزة الدولة ومؤسساتهاوالاحوال المعاشية والاقتصادية لم يعد يطيقها الفرد العادي في المجتمع.. ولكنّ الخليفة الداهية استطاع أن ينتشل البلاد والعبـاد من الازمة الخانقة ويرسي بسـفينة الدولة على شاطىء السلامة ـ رغم انها سلامة مؤقتة ـ كانت أشـبه بصحوة أو إفاقـة الموت للدولة العباسية .

ويختلف المؤرخون الرواد والمحدثون في تقويمهم لعهده الطويل الذي استمر مدة سبع واربعين سنة تقريباً وانتهى سنة ٦٢٢هـ/سنة١٢٢٥م ، فالسيوطي وابن الطقطقي مثلاً يؤيدهما الدكتور حسين أمين يرون بأن الناصـر من دهاة خلفـاء بني

العباس وأنه بالسياسة والدبلوماسية حقق الكثير من أهدافه وأنجز العديد للخلافة[1] • فالفضل يعود اليه في إنهاء النفوذ السلجوقي في العراق سنة٥٩٠هـ/سنة١١٩٣م كما وانه أعاد نفوذ الخلافة السياسي والاداري على الاقاليم التي اغتصبها السلاجقة في فترة الضعف والانحلال •

ومن خلال نظام الفتوة الناصرية استطاع الخليفة الناصر أن يزرع روحاً جديدة وثابة في الأمة من أجل إعدادها للصمود أمام الاخطار الداخلية والخارجية المحدقة بها، فكانت جهوده تنصب في العمل من أجل النهوض بالامة من محنتها وذلك بتحقيق استقلال الخلافة من التسلط والنفوذ وبناء جيش قوي تتعاون وتتحالف معه جيوش أمراء الأطراف والاقاليم ليتصدى لكل التحديات التي تواجه دار الاسلام• ثم بناء قاعدة ثقافية ثابتة وقوية تساند القوة العسكرية وذلك بالعمل على تشجيع نشر العلم والشريعة ومحاربة الحركات الباطنية المغالية •

كما أحيا الناصر سنّة أسلافه من الخلفاء العباسيين الأوائل بالنظر بنفسه في مظالم الناس وإعادة حقوقهم اليهم وكان يتجول ليلاً متنكراً في دروب بغداد للتعرف على أحوال الناس وأوضاعهم • تشير رواية تأريخية أن الناصر :

« أحبّ أن يباشر أحوال الرعية بنفسه حتى كان يتمشى في الليل ليعرف أخبار الرعية وما يدور بينهم ، وكان كل أحد من أرباب المناصب والرعايا يخافه ويحاذره بحيث كأنه يطلع عليه في داره .. »[٢]

وفي تلك الظروف الصعبة والحرجة التي كانت تمر بها الخلافة والاعداء يتربصون بها من كل جهة وخاصة المشرق أسس الناصر جهاز مخابرات فعال ودقيق فكانت تأتيه الاخبار من كل مكان في الداخل والخارج[٣] .

إنّ خليفة كالناصر في مثل هذا الحذر والتوجس والكفاءة في ضبط أمور الدولة لحريّ أن يكون من أحفاد أبي جعفر المنصور والموفق طلحة والمقتفي .

والواقع أن الناصر لم يدخر وسعاً في استغلال صراعات السلاجقة فيما بينهم أو السلاجقة والخوارزمية وأمدّ بعضهم بقوات عسكرية ضد البعض الآخر .

كما وأنّ الناصر هدم (دار السلطنة) في بغداد وهي رمز الهيمنة السلجوقية سنة ٥٨٣هـ / سنة ١١٨٧م حيث لم يجرؤ أحد من الخلفاء على ذلك قبله . ورغم أن عدداً من خلفاء بني العباس تصدوا للسلاجقة وتحدّوا نفوذهم مثل

المسترشد والراشد والمقتفي ولكن إجراءات الناصر كانت أكثر دقة وتأثيراً .

أما وزراء الناصر فإنّ بعضهم مثل مؤيدالدين بن القصّاب كان يتمتع بكفاءة عسكرية توازي قابلياته الادارية والمالية ولذلك اختاره الناصر لقيادة الجيش وقد نجح بالفعل في التصدي لتحرشات السلاجقة العسكرية كما أفلح في استرداد الاحواز واصفهان وهمدان الى العراق بعد أن كانت تحكم من قبل أمراء محليين .

لقد كان الخطر على الخلافة العباسية والعراق يصدر من قبل المشرق ... وقد نجح الخليفة الناصر في محاولاته المستمرة طوال عهده على حفظ التوازن الدقيق فكان يضرب الأمراء الطامعين بالعراق الواحد بالآخر ، فقد ضرب خوارزمشاه تكش زعيم الخوارزمية بطغرل الثالث سلطان السلاجقة واشتبك الطرفان في معركة كانت نتيجتها نهاية النفوذ السلجوقي بالعراق . ثم تصدى للخوارزمية الذين اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين للسلاجقة فمنعهم من تحقيق أهدافهم وهددهم بالغوريين وغيرهم من أمراء المشرق،فكانت لعبة سياسية عسكرية دقيقة نجح فيها الناصر!!

لهذه الاسباب وبسبب الخطر الدائم من المشرق كان الخليفة الناصر في شغل شاغل بهمومه المشرقية عما يحدث في

الاقاليم الغربية حيث كان صلاح الدين الايوبي قد أسقط الفاطميين وخطب باسم الخلافة العباسية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وبدأ يعدّ العدّة لمجابهة الصليبيين الفرنج . ومع ذلك فان ما قدمه الناصر من معونة مادية ومعنوية كان كافياً لدعم صلاح الدين .. فمهما كانت المساعدة التي قدمتها الخلافة العباسية فهي مساعدة ترمز الى وقوف الخلافة بقوة مع صلاح الدين وهذا بالضبط ما كان يريده صلاح الدين من الخلافة حيث كان يدرك ظروفها الداخلية والخارجية والاخطار الشرقية التي يجب أن تتصدى لها . والذي يطلع على الرسائل المتبادلة بين الناصر وصلاح الدين يدرك ذلك بصورة واضحة.

وقد أخذ الناصر بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ سنة ١١٩٣م جانب الملك العادل (أخو صلاح الدين) وشرّفه بلباس الفتوة واعترف بنفوذه على مصر والشام في محاولة من الخليفة لجمع شمل الايوبيين تحت قيادة واحدة لمجابهة الخطر الفرنجي .

من ذلك كله لا بد أن نقوّم جهود الناصر ودأبه المتواصل لاستعادة قوة الخلافة بالدهاء والدبلوماسية تارة وبالقوة والسيف تارة أخرى .. وفي الوقت نفسه لم يألُ جهداً في دفع عجلة النشاط الثقافي والعلمي والعمراني في البلاد .. فكان

بحق من أبطال التحرير والاعمار بين خلفاء العصور العباسية المتأخرة ، وكان حكم التأريخ عليه أنه :

« الناصر لدين الله أعظم سياسي عباسي وأحسن بني العباس [المتأخرين] إضطلاعاً بأمور الخلافة ، فقد وسع مملكته توسيعاً لا يبلغه إلا ذو همة حاسمة وطموح عظيم »(٤) . وهو من « أكثر متأخريهم عمارة وسعادة وسياسة »(٥)

ورغم أهمية عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي من الناحية السياسية والفكرية ، فإنّ الدراسات حوله قليلة ، فقد ركز عليه الدكتور عبدالمنعم رشاد في أطروحته عن الخلافة العباسية (٥٧٥هـ — ٦٥٦هـ) ، كما بحثت أحلام حسن النقيب سياسته الداخلية في أطروحتها للماجستير . وفيما عدا ذلك فإنّ الباحثين من أمثال الدكتور حسين أمين والمرحوم الدكتور محمد صالح القزاز والدكتور بدري فهد والدكتور فاروق عمر ، وكذلك الاستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن تطرقوا الى الناصر في سياق بحثهم في تأريخ العصور العباسية المتأخرة . وتختلف هذه الدراسة التي بين أيدينا عن الدراسات آنفة الذكر من حيث المنهج والهدف ، ذلك أنها تخاطب المثقف العام والمولع بالتاريخ الذي يود التعرف على رموز تاريخنا

العربي الاسلامي ومشاهيره الذين لعبوا دوراً متميزاً في مسيرة الامـــة .

كما وأن هدف هذه السلسلة الموسومة بـ « مشـــاهير العرب » إعتبار التأريخ أداة توعية وتوجيه وتعبئة متكاملـــة للجيل الجديد والناشئة من شباب الامة ليتعرفوا على أبطال الامة وقادتها ، لا من أجل انصاف هؤلاء الابطال فحسب بل من أجل « النابتة » والشباب والاجيال الصاعدة التي تحتاج الى رموز تقتدي بها وتسير على نهجها .

الهوامش :

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٥٠ فما بعد . ابن الطقطقي ، الفخري ، ص٢٦٠ فما بعد ، حسين أمين تاريخ العراق ، ص٢٣٣ . أنظر كذلك لتاييد وجهة النظر نفسها ابن الساعي ، مختصر أخبار الخلفاء ص١١١ .

(٢) ابن الطقطقي ، ٣٢٢ .

(٣) السيوطي ، ص٤٤٨ .

(٤) راجع مقدمة كتاب الجامع المختصر بقلم المحقق المرحوم د. مصطفى جواد .

(٥) كذلك مصطفى جواد في مقالته عن القصر العباسي ، سومر ، ١٩٤٥ ص٧٠ .

الفصل الاول

الناصر لدين الله قبل الخلافة

ولايته ونشأته · اعداده لتحمل المسؤولية · بيعته بولاية العهد

الناصر لدين الله هو أبو العباس أحمد بن الحسن ، كان أبوه المستضيء بأمر الله وجدّه المستنجد بالله · وهو عباسي هاشمي عربي يرجع نسبه الى مؤسس الخلافةالعباسية أبي جعفر المنصور[1] ·

وكانت ولادة الناصر في رجب من عام ٥٥٣هـ/١١٥٨م كما تتفق في ذلك أغلب مصادرنا التأريخية[2] · ويبدو أن عادة خلفاء بني العباس في إعداد أولادهم من الامراء إعداداً يؤهلهم لتحمل المسؤوليات السياسية والعسكرية في مستقبل أيامهم قد استمرت في العصور العباسية الاخيرة ، على أقل تقدير لدى بعض الخلفاء · فالخليفة المستضيء بالله قد عني بتربية أبنائه لذلك نجد الكثير من صفات الفروسية متوفرة في الناصر منذ كان أميراً ووليا للعهد حيث تصفه الروايات

التأريخية بالشجاعة والشهامة والاقـدام[٣] ، كما وأنه كان حاذقاً أديباً عالماً مما جعل الذهبي يصفه بالدهاء والفطنةخاصة بعد أن استلم زمام الامور[٤].

وفيما عـدا ذلك تدرّب الناصر على ركوب الخيـل والصيد في البر والبحر والرماية[٥] ، وكان مولعاً في هذا ولعاً واضحاً . كما وأنه كان يفضّل التقرب الى الناس والظهـور الى الرعية في شبابه وفي سني حكمـه الاولى قبل أن تعتلّ صحته ويضعف بصره . إنّ حبه للرعيّة وتـودده لها في تلك الفترة من حياته يفسّر لنا سبب اهتمامه ببناء دور الضيافـة والمساجد والاربطة[٦] .

أما بيعته بولاية العهد فيبدو أن أباه الخليفة المستضيء قد ولاّه العهد في بادىء الامر ثم عدل عنه الى أخيـه أبي منصور هاشم وأيده في هذا الاجراء العديد من كبار رجالات الدولة مثل ابن العطار نائب الوزارة وابن الصاحب اسـتاذ الدار (دار الخلافة وخدماتها) ولكن الاحوال تبدلـت في اللحظة التي توفي فيها المستضيء بالله وأعيد الحق الشرعـي الى صاحبه الناصر لدين الله[٧] .

على أن الناصر لم ينسَ موقف ابن العطار وابن الصاحب منه . وقد تخلص من ابن العطار[٨] بعد أيام قليلة من بيعته بالخلافة حيث ثار به بعض العامة ثم اعتقل ومات في سجنه .

أما استاذ الدار ابن الصاحب الذي صار الحاكـم في الدولة في السنين الاولى من عهد الناصر فقد قبض عليه الناصـر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م أي بعد حوالي ثماني سنوات من البيعة وصادر أمواله ثم أمر بقتله بسبب إستحواذه على أمور الدولة وتسلطه على شؤونها دون الخليفة(٩) .

لقد كانت حياة الناصر لدين الله قبل الخلافـة حيـاةً صعبة وحساسة بسبب ما تعرض له من مضايقات حول ولاية العهد ، وهي تشبه الى حـد كبير سـيرة عيسى بن موسـى العباسي في عهد المنصور والهادي في عهد المهدي وهـارون الرشيد في عهد الهادي ... ويبدو أن هذه المشـادّة حول ولاية العهد كانت تظهر وتتكرر بين حين وآخر خلال العصـر العباسي ، ولم يتعظ بها الخلفاء بل أن الناصر نفسه في قراراته المتعلقة بولاية العهد قد كرّر الموقف نفسه!! رغم أن الظروف والاسباب قد تختلف من عهد الى آخر ومن خليفة الى آخر .

الهوامش :

(١) ابن الدبيثي ، المختصر ، جـ١ ص٣٤ . ابن الساعي ، مختصر أخبار الخلفاء ص١١٠

(٢) سبط ابن الجوزي ، جـ٨ ص٦٣٥ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٨ .

(٣) ابن الساعي ، مختصر أخبار الخلفاء ، ص١١٠ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ص٣٠٥

(٤) الذهبي ، دول الاسلام ، جـ٢ ص١٢٦ .

(٥) ابن دحية ، النبراس ، ص١٦٥ . ابن المعمار ، الفتوة ، ص١٢٥

(٦) الفخري ، ص٣٢٢ . ابن الدبيثي ، المختصر ، جـ١ ص٣٦

(٧) سبط ابن الجوزي ، جـ٨ ص٣٥٤ . ابن كثير ، البداية جـ١٢ ص٣٠٥

(٨) ابن الاثير ، الكامل جـ٩ ص٣٦٠

(٩) الذهبي ، دول الاسلام ، جـ٢ ص٩٢ . تاريخ ابن الوردي جـ٢ ص٩٨ ، ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٣ ص١٠٨٩ فما بعد .

الفصل الثاني

الناصر لدين الله خليفة

يبدو أن الخليفة المستضيء خطب للناصر بولاية العهد في أيامه الاخيرة ولكنه سرعان ما عدل عنه الى أخيه أبي منصور لتخوّفه من الناصر مما دعا به الى سجنه . ولكنّ المرض لم يمهل المستضيء طويلا حيث توفي قبل استقرار الامور لولي العهد الجديد أبي منصور ، وهذا ما جعل الحاشية وعلى رأسها أستاذ الدار والوزير وغيرهم يأخذون البيعة للناصر[1] .

وقد بويع الناصر صبيحة ليلة وفاة والده وكان أول المبايعين له أخوه الامير أبو منصور هاشم وتبعه بقية الأمراء ورؤساء الدواوين والقضاة والفقهاء[2] .

ثم جلس الناصر بعد ثلاثة أيام في دار الملك للبيعة العامة ولتلقي التهاني من وفود الاقاليم من وجوه وأعيان الناس فيها وكان من بينهم ضياء الدين الشهرزوري الذي جاء برسالة التهنئة من صلاح الدين الايوبي . وكانت وفود الشام والثغور ومصر قد حضرت ومعها شعراؤها للتهنئة والبيعة.

فكانت مناسبة أظهرت فيها الخلافة العباسية في بغـداد مظاهر الابهة والابتهـاج والبشرى بالعـاهل الجديد • كما شارك الناس في هذه الاحتفالات وتمنوا أن تكون أيام الناصر أيـام خصب ورفاهية بعد ما عانـوه من سني البؤسـ واليأس في السنين الماضية •• وقد أثبت الناصر أنه عند حسن ظنّهم به كما سنرى في الفصول القادمة •

استلم الناصر الخلافة في مستهل ذي القعدة سنة٥٧٥هـ/ ١١٨٩م وجعل نقش خاتمه (رجائي من الله عفوه)[٣] فكانت أيامه كما يقول ابن الدبيثي[٤] أيام خصب وبركة وصحة بعد حرب وبؤس ويأس!! ويؤكد ذلك الرحالة الشهير ابن جبـير الذي زار بغداد في عهد الناصر لدين الله فوصف الناصـر وسياساته تجاه الرعية بقوله :

« وهو ميمون النقية عندهم قد استسعدوا بأيامه رخاءً وعدلاً وطيب عيش فالكبير والصغير منهم داعٍ له »[٥] •

ويتفق مع هذا الحكم باحثان محـدثان هما الدكتور مصطفى جـواد والدكتور حسـين أمين فيقول الاول[٦] ان الناصر من أكثر الخلفاء العباسيين المتأخرين عمارةً وحسـن سياسة • ويرى الثاني[٧] أن الدولة بلغت قمة مجدهـا من النفوذ في عهده •

وكان يساعد الخليفة الناصر في إدارة شؤون الدولة نخبة من المسؤولين السياسيين والاداريين[٨]، وعلى رأسهم الوزير ونائبه واستاذ الدار (دار الخلافة) والحاجب وقاضي القضاة وصاحب المخزن وصاحب المظالم والحسبة ورؤساء الدواوين المتنوعة وصاحب ديوان الزمام .

وقد أشرنا أن لأستاذ دار الخلافة نفوذاً كبيراً في بداية خلافة الناصر ولكن الخليفة أوقع به بعد أن كثرت الشكاوى على تجاوزاته وسلبه أموال الرعية خاصة بعد أن تسلّم الخليفة مذكرة من نائب الوزارة جلال الدين صدقة ، وكان ذلك سنة ٥٨٣هـ[٩] .

أما وزراء الخليفة الناصر فكانوا وزراء تنفيذ لا سلطة لهم بوجود الخليفة الذي كان يباشر الامور بنفسه ما عدا بضع سنين قبيل وفاته . ومن هنا جاءت كلمات ابن دحية في الناصر :

« أخذ الأمر حقاً وقوةً وفتح البلاد طاعة وعنوةً وطبقت دعوته جميع الآفاق وطلعت شمس حكمته باهرة الاشراق وأوقع بوزراء السوء على الاطلاق وقام بما عليه من العهد والميثاق »[١٠] .

كما وأن الناصر لم يكن لديه وزير على الدوام بل يختار أحياناً وزيراً ويعين أحياناً أخرى نائب وزير حسب ما يراه ضرورياً(١١) .

ويحدثنا صاحب كتاب الفخري في الآداب السلطانية(١٢) عن إهتمام الناصر في اختيار الرجل المناسب في المحل المناسب وحرصه على معرفة معدن الرجال وسريرتهم قبل التعيين ، أنه كان يطلق الدعايات والاشاعات بين الناس بواسطة أصحاب الاخبار وأعوانهم حول ترشيح شخص معين لمنصب معين فتكثر الاقاويل عليه من قبل أصدقائه وأعدائه من معارفه فيكتب أصحاب الاخبار الى الخليفة بذلك كله وأي الفئتين على حق وصواب وعندئذ يوازن الخليفة بين الرأيين ويختار الشخص أو يتركه!! وهذا ما كان يفعله حين يختار وزيراً أو قاضياً أو صاحب ديوان أو غيرهم من وجوه الخلافة في السياسة أو الادارة .

وفي الكتاب نفسه آنف الذكر نلاحظ نصاً كتبه الخليفة الناصر بتولية وزارية الى أحد وزرائه المعروف باسم مؤيد الدين بن برز يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد بن برز نائبنا في البلاد والعباد فمن أطاعه فقد أطاعنا ومن

أطاعنا فقد أطاع الله ومن أطاع الله أدخله الجنة .. »[١٣] .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه آنفاً من أنّ الناصر اعتبر الوزراء منفذين لا مفوضين في الحكم أنه إستوزر أربعة عشر شخصية حمل خمسة منهم فقط لقب الوزير أما البقية الباقية فلم يكونوا أكثر من نواب وزراء[١٤] .

على أنّ ما يجدر ذكره فيما يتعلق بالوزارة في العصور العباسية المتأخرة وعهد الناصر هو جمعها رياستي السيف والقلم في آن واحد ، ففي الوقت الذي يشرف فيه الوزير على الامور المالية والادارية كان يتقلد قيادة الجيش ويقود العساكر لقتال الاعداء والمتمردين وذوي النزعة الانفصالية[١٥] . ولعل أشهر مثل على ذلك وزيره الناصر المعروف (بابن القصّاب) الذي قاد جيش الخلافة ودوّخ السلاجقة وأعاد العديد من مدن بلاد فارس الغربية الى نفوذ الخلافة العباسية في بغداد . وتوفي سنة ٥٩٢هـ/سنة ١١٩٥م بعد أن أعاد همدان وأصفهان وحاصر الري[١٦] .

لقد استمرت الخلافة العباسية في الأخذ بالنظام المركزي في الادارة فكان الخليفة بمساعدة الوزير يعين من يراه مناسباً على الاقاليم التابعة للدولة وهي في تلك الفترة قليلة ومحصورة في العراق وبعض أقاليم بلاد فارس الغربية[١٧] . والمعروف أن

ولاية مصر وولاية الشام والحجاز واليمن كانت تابعة لصلاح الدين الأيوبي واسرته ومع اعتراف هؤلاء جميعاً بالخليفة العباسي إلا أن للخليفة العباسي نفوذاً مؤثراً فيهم بل أن إقراره لهم كان اعترافاً بأمر قد وقع فعلاً.

وقد ظهرت في العصور العباسية الاخيرة مناصب جديدة بسبب تبدل الظروف منها : منصب الشحنة وهو موظف يتولى سلطات ادارية وأمنية في المدن والمراكز الحضرية الاصغر من المدن . وهناك منصب (الحماة) وهم المسؤولون عن حفظ الأمن والنظام في الارياف ومناطق البادية ويختارون عادة من رؤساء العشائر المتنفذين في مناطقهم كي يتمكنوا من أداء مهامهم بيسر وسهولة[١٨] .

لقد كانت دواوين الدولة الرئيسية مستمرة في تأدية واجباتها دون تغيير جذري ، رغم ان بعضها قد تبدل اسمه فمثلاً ديوان الخراج تبدل الى (المخزن) وصاحبه صاحب المخزن . وأصبح ديوان الجند ديواناً للجيش ، وديوان النفقات والضياع أصبح ديوان المقاطعات . وغدا لضريبة الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة ديوان خاص بها يسمى (ديوان الجوالي) . وكانت مواريث من لا وارث له تذهب الى بيت المال مباشرة أما في العصور العباسية الاخيرة فأصبح لها ديوان ينظمها تحت اسم (ديوان التركات الحشرية) . على أن الأهم من ذلك

ظهور دواوين جديدة ، تشير رواياتنا التأريخية الى أسـمائها وبعض مهامها في عهد الناصر لدين الله منها :

ديوان الابنية : وهو ديوان يدل على مدى إهتمام الناصـر بالعمران والبناء رغم كونه كان يواجه تحديات عديدة من الخارج وخاصة من بلاد فارس ولكنه كان يصرّ على ايجاد الاموال اللازمـة لإعمار عاصمته بغداد وترميم أسوارها وأبوابها وبناء أسواق ومدارس وربط في أماكن عـديدة من المناطق الواقعة تحت نفوذ الخلافة[١٩] .

ديوان المقاطعات : وهذا الديوان مسؤول عن المقاطعات التي يمنحها الخليفة للأمراء والمتنفذين حيث تسجل بأسمائهم في دفاتر خاصة مقابل شروط معينـة يقبلها الامير المقطع[٢٠] .

ديوان الوقوف : ومع ان هذا الديوان كان موجوداً قبل عهد الناصر ، وان تقليد الوقف تقليد اسلامي قديم فقد نشط هذا الديوان في عهد الناصـر بسبب كثرة الوقوف التي أوقفها الخليفة .

وأخيراً وليس آخراً ، ديوان الطبق : وتنحصر مسؤوليته في الاشراف على توزيـع الطعام والشـراب على الفقراء والمحتاجين خاصة أولئك الذين يمنعهم

التعفف من سؤال الناس أو التسول[٢١]. وكان صاحب الديوان يستعين بذوي الخبرة من أعيان الناس والنقباء للتعرف على المحتاجين في الأزقة والسكك والمحلات .

أما ديوان البريد فلعل من أهم صلاحيات صاحبه هو كونه عيناً للخليفة يوافيه بأخبار الاقاليم والاحداث المهمة التي تقع فيه[٢٢] . إلا أن هذه المهمة الخطيرة أصبحت في العصور العباسية الاخيرة تنحصر أكثر فأكثر بيد (صاحب ديوان الخبر) الذي تداخلت صلاحياته مع بعض صلاحيات صاحب البريد الخاصة بتقصي الاخبار التي تهم الدولة .

ومن الطبيعي ان الدولة العباسية في خلافة المسترشد والراشد والمقتفي ثم الناصر لدين الله وهي تسترجع استقلالها من الامراء والسلاطين المغتصبين أن تشدد في الحذر وتبالغ في تقصّي الاخبار حفظاً على أمنها وسلامتها[٢٣] .

وكان من سياسات الخليفة الناصر في الفترة الاولى من حكمه النظر في المظالم[٢٤] والتدقيق في رقاعها ورد الظلامات الى أهلها إلا أن ذلك لم يستمر طوال حكمه حيث أوكله الى الوزير أو نائبه أو أحد القضاة .

كما وأن الناصر في سياسته الدينية كان فوق المذاهب والميول والاتجاهات[٢٥] ، وكانت سياسته هذه التي يمكن أن

تسمى سياسة توفيقية سمة إتّبعها العديد من خلفاء بني العباس الذين لم يظهروا تميّزاً لمذهب على آخر وحاولوا جاهدين التوفيق بين آراء المذاهب المختلفة ، واعتبروا أنفسهم حماة الاسلام كله بمذاهبه المتعددة ... وقد خدمت هذه السياسة هدف الخليفة الناصر في تحقيق الانسجام والوحدة قدر المستطاع بين فئات المجتمع العربي الاسلامي الواحد .

أما بخصوص سياسة الناصر المالية والاقتصادية بوجه عام فان الباحث يلاحظ محاولات الناصر التخفيف من عبء الضرائب في سني حكمه الاولى بسبب الضيق والجدب الذي حل بالبلاد قبل مجيئه الى الحكم . ولهذا استبشر الباعة وذوو الدخل المحدود خيراً « فكثرت الأدعية لأمير المؤمنين »[٣٦] .

إلا أن الضائقة الاقتصادية ما لبثت أن خفّت حيث كثرت الخيرات والزروع ورخصت الاسعار ، فكانت أيامه على حد قول ابن جبير « رخاءاً وعدلاً وطيب عيش.. »[٣٧] . ويضيف ابن جبير الذي زار العراق في هذه الفترة كثرت المزارع والنخيل وبساتين الفواكه فيقول مثلاً عن الطريق الزراعي بين بغداد الى الحلة :

« إنه أحسن طريق وأجملها في بسائط من الارض وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالاً ويشق هذه

البسائط فروع من ماء الفرات تتسرب بها
وتسقيها وهي متسعة وفسيحة تشرح بها العيون
وتنبسط فيها النفوس والأمن فيها متصل»(٢٨)

والمهم هنا أن نشير الى ملاحظة مهمة ذكرها ابن جبير وهي إهتمام الناصر بالمحافظة على الأمن والاستقرار فقد لاحظ نقاط حراسة على طول الطريق لحماية القناطر والجداول المتفرعة عن الانهار وحماية القوافل خاصة وأن هذا الطريق كان جزءاً من طريق الحج الى الحجاز . يقول ابن جبير :

« فلا يكاد المرء يمشي ميلاً إلا ويجد قنطرة على
نهر متفرع من الفرات فتلك الطريق أكثر الطرق
سواقي وقناطير وعلى أكثرها خيام فيها رجال
محترسون للطريق ...»(٢٩)

وقد منع الخليفة الناصر سوء استغلال الفلاحين والمزارعين أو استخدامهم في أعمال السخرة ، فحين علم الخليفة أن عامله على منطقة نهر الملك قد أجبر الفلاحين على العمل بالسخرة لحسابه الخاص أمر بقطع يده ليكون عبرةً لمن يستغل نفوذه بصورة غير صحيحة(٣٠) . كما وان هذا الاجراء يدلّ ـ ضمن إجراءات أخرى منها تخفيف عبء بعض الضرائب ـ على الأمل الذي كان يعلقه الناصر على الفلاحين وهم الفئة المنتجة للغلة التي يقتات منها الشعب . وهذا يفسّر

إشارات ابن الساعي[٣١] في كتابه الجامع المختصر الى وفـرة المواد الغذائية ورخص أسعارها في هذه الفترة .

ولا بدّ أن نشير الى سبب آخر من أسباب كثرة الغلات وإنخفاض الاسعار على عهد الخليفة الناصر لدين الله فقد أمر الخليفة بفتح خزائن الغلات واطلاق البيع للناس ، كما أعطى أرزاق الجند من الحبـوب عيناً فكثر العرض مـن الحنطـة والشعير والذرة في الاسواق[٣٢] مما أدى الى تراخي أسعارها بسبب الفائض منها وكثرة نسبته على الطلب .

هوامش الفصل الثاني :

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ ص٤٥٩ . سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ، جـ٨ ص٣٥٤ .

(٢) الأربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص٢٨٠ . البنداري، سنا البرق الشامي ، ق١ ص٣٤٢

(٣) الكازروني ، مختصر التاريخ ، ٢٤٣

(٤) المختصر المحتاج اليه ، جـ١ ص٣٦

(٥) رحلة ابن جبير ، ص١٨١

(٦) المقدمة لكتاب الجامع المختصر ، (الصفحة الثانية)

(٧) العراق في العصر السلجوقي ، ص١٦٦

(٨) راجع : أحلام النقيب ، سياسة الخليفة الناصر ، اطروحة ماجستير/جامعة بغداد/ الفصل الثاني

(٩) تاريخ ابن الوردي ، جـ٢ ص٩٨ . الذهبي ، دول الاسلام، جـ٢ ، ص٩٢ . ابن خلدون ، تاريخ ، مجلد ٣ ص١٠٨٩

(١٠) النبراس في خلفاء بني العباس ، ص١٦٥

(١١) أحلام النقيب ، المصدر السابق ، ص٦٤ . فاروق عمر ، النظم الاسلامية ، العين ١٩٨٣ ، ص٥٢

(١٢) الفخري ، ص٣٩

(١٣) المصدر السابق ص١٥٣ . يحفل كتاب صبح الاعشى للقلقشندي بالعديد من هذه الرسائل لمختلف العهود

(١٤) راجع القائمة في اطروحة أحلام النقيب ص٧٣

(١٥) فاروق عمر ، النظم الاسلامية ، ص٦٣-٦٤

(١٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٢ ص١١٢ . الذهبي ، العبر ، ج٤ ص٣٧٩

الفخري ، ص٣٢٤ . ابن الدبيثي ، ج١ ص٩٦

(١٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٢ ص١٠٧ . ابن الفوطي ، ١٦٨ . البنداري ، ٢٦٧ . القزاز ١٢٢

(١٨) حول هذه المصطلحات راجع ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ ص٦٥١ ، ٧٣٨ . القزاز ، ص١٢٥

(١٩) الايوبي ، مضمار الحقائق ص٩٢ ، ص١٧٠

(٢٠) أحلام النقيب ، ص٨٩

(٢١) ابن رجب البغدادي ، ذيل طبقات الحنابلة ، ج٢ص٦٦

(٢٢) فاروق عمر ، النظم الاسلامية ، ص٧٨

(٢٣) كامل مصطفى الشيبي ، أصحاب الاخبار ، آفاق عربية ، ١٩٨٤ ، ص٦٠ فما بعد

(٢٤) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص٢١٣

(٢٥) الفخري ، ص٣٧٠ . أبو الفداء ج٣ ص١٤٢ . القزاز ، ص١٦٥ ، ١٦٧-١٦٨

(٢٦) الجامع المختصر ، ج٩ ص٢٢٧ فما بعد

(٢٧) رحلة ابن جبير ، ص١٨١

(٢٨) المصدر السابق ، ١٦٩ ٠ احلام النقيب ، ص١٣٧

(٢٩) المصدر السابق ، ١٧٠

(٣٠) الايوبي ، مضمار الحقائق ، ص١١٥

(٣١) الجامع المختصر جـ٩ ص٢٩٤ فما بعد . أحلام النقيب ، ص١٤٠

(٣٢) الايوبي ، مضمار الحقائق ، ص١١

الفصل الثالث

الفتوّة الناصرية

اشتهر الخليفة الناصر بتنظيمه الفتوة على قواعد وأسس جديدة[1] حتى عرفت باسمه وأضيفت اليه فقيل « الفتوة الناصرية » ، لأنه على حد رواية تأريخية :

« شيد بنيانها ومهد أركانها وألف أحزابها وأرشد طلابها وأظهر أنوارها وأوضح برهانها . فبطلت النظم إلاّ ما شيده وبناه ، وتعطلت المعاقل إلاّ ما اختاره واصطفاه . فهو شجرة الفتوة وإمام الرحمة، فواصل وأوصل وأحسن وأجمل، وبه انتشر علم الفتوة بعد أن كان منتكساً وميزهم عن سواهم بعد أن كانوا فرقاً »[2] .

ويبدو من النص آنف الذكر أنّ نظام الفتوة نظام قديم، وقد ورد ذكرها في اللغة العربية وآدابها بمعنى الشباب ، كما ترمز للكرم والشجاعة والمروءة والفروسية والصبر . وهي كما يقول ابن المعمار في كتابه (الفتوة) خصلة من خصال

الدين وصفة مكملة للعارفين الذين يعملون بالقسطاس المستقيم فكل فتىً لا بدّ أن يكون متديناً[٣] .

ويضيف ابن المعمار إن أهم ما يُندب الفتى هو معرفة الله تعالى والايمان به وبملائكته وكتبه ورسله ويخلص في عقيدته وعبادته ويحسن في ضميره ويحافظ على فرائض دينه وواجباته وينطق بالصواب ويصنع المعروف .

وكانت الفتوة تنظيماً اجتماعياً بالدرجة الاولى وقد اشترط ابن المعمار ستة شروط رئيسية في الفتى هي الذكورة والبلوغ والدين والعقل والمروءة والاستقامة ، وهنا يعني ابن المعمار الفتوة الفروسية .

وللفتوة مراتب ومراسم خاصة بها حيث يلبس العضو الجديد سراويل الفتوة ويشرب شرابها الذي يتكون من الماء والملح . فالماء ، كما يقول ابن المعمار ، أصل الحياة وقوامها أما الملح فهو رمز دوام الحال وعدم التغير والانتقال لأنه يصلح كل فاسد ويحفظ من التبدل والتغير ، وهو اشارة على الصبر واحتمال البلاء . وكان نقيب الفتوة رأس التنظيم وله صلاحيات كبيرة وطاعته واجبة ومن خالف النقيب في شيء تهدر فتوته ويطرد من التنظيم[٤] .

إنّ الخليفة الناصر بدهائه أراد أن يستغل هذا التنظيم الاجتماعي لمصلحة الدولة العباسية السياسية ، فقد أدرك أن

المجتمع بحاجـة الى قوة تبعث فيه روحاً جـديدة قادرة على الثبات أمام المحن والازمات المحيطة به سواءً كانت سياسـية أم اقتصادية أم اجتماعية .

وبمعنى آخر فان الناصر أراد أن ينتشل الأمة من كبوتها بأن يبعث في شبابها خاصة روحاً تستند على تعاليم الاسـلام وقيم العروبة ، وان ينظمهم في تنظيم خـاص يوحّدهم بغض النظر عن أقاليمهم وطوائفهم ومذاهبهم وبذلك يحقق وحـدة المجتمع ويقتل كل أسباب التفرقة والتفكك فيه . ومن أجل ان يضمن سلامته وقوته جعل قيادته بيده شخصياً[٥] .

إنّ تجديد شباب الأمة من خلال نظام الفتوة كانأسلوباً سياسياً وعسكرياً حارب به الخليفة الناصر العباسي ليس فقط المعوقات الداخلية في مجتمعه بل تصدى بواسطته لأعـدائه الخارجيين من باطنية وخوارزمية ومغول وافرنج (صليبيين). وعلى حد قول الدكتور مصطفى جواد[٦] إن هدف الناصر هو إعادة مجد بغداد الى سـابق عهده مقراً للقرار السياسـي في الشرق وتوحيد العالم الاسلامي تحت قيادتها .

لقد ابتدأ الناصر بتنفيذ مشروعه السياسي هـذا بعـد سنوات قليلة من تسلمه الخلافة حيث انتمى اليها سنة٥٧٨هـ/ سنة ١١٨٢م على يد الشيخ عبدالجبار البغدادي . ثـم أمر الخليفة ببناء صومعة جديدة للشـيخ البغدادي سنة ٥٨٠هـ

وبدأ يتردد عليها مع صحابته وخاصته المقربين الذين انضموا الى التنظيم الجديد • ثم أمر الخليفة ابن الدوامي أن يكون نقيباً للجماعة وأن يضع نظاماً جديداً للفتوة له شروطه وتعاليمه • وقد انتشر نظام الفتوة بعد أن تبنّاه الناصر ولهذا يقول ابن الطقطقى :

« ولبس [الناصر] لباس الفتوة وألبسه وتفتى له خلق كثيرون في شرق الارض وغربها ورمى بالبندق [كرات الرمي] ورمى له ناس كثيرون فكان يافعة زمانه ورجل عصره »(٧) •

لقد نجح الناصر في إثارة روح الرجولة والنخوة بين الفتيان المنضوين تحت نوائه ، وكان يؤكد على دوام التدريب والمهارة في التهديف وجعل من نفسه القدوة في ذلك حتى عدّه البعض من أمهر الهدافين في زمانه • وفوق ذلك تمكن الناصر أن يكوّن قوة عسكرية يحسب حسابها ويعتدّ بها في مساندة الخلافة • يقول ابن جبير(٨) الذي زار بغداد في تلك الفترة :

« ورونق هذا الملك إنما هو على الفتيان والاحابش المجابيب منهم فتى اسمه خالص وهو قائد العسكرية كلها أبصرناه خارجاً في أحد الايام وبين يديه وخلفه الأجناد • »

لقد نجح الخليفة الناصر في محاولته ايجاد قدر مشترك من التضامن بين غالبية ملوك الاطراف في العالم الاسلامي تحت زعامته فقد التزم العديد من الامراء بمراسيم الفتوة ومنهم ملك مصر وبلاد الشام (الملك العادل) وملك حماة وملك بلاد الروم السلجوقي وملك الغوريين وملك حلب وملك شيزر وصاحب جزيرة قيس في الخليج العربي وغيرهم كثير وعدد لا يحصى من موظفي الدولة ورؤسائهم وجمهور العامة(٩) .

لقد كان نظام الفتوة ، كما نوهنا عن ذلك في كتابنا الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، محاولة جادة من قبل خليفة داهية وسياسي محنّك لبث روح جديدة وعزيمة فتية في نفوس الشباب والقادة في المجتمع العربي الاسلامي من خلال انخراطهم في تنظيم يتزعمه الخليفة ويقوده بنفسه من أجل مواجهة المخاطر التي تهدد الدولة كخطر الباطنية والغلو في الداخل والمغول والتتار والافرنج في الخارج ، ولتحقيق روابط جديدة ومتينة بين ملوك الاطراف المسلمين للثبات أمام المحن والشدائد .

إنّ خليفة مثل الناصر أعاد هيبة الخلافة وقضى على النفوذ السلجوقي الاجنبي في العراق وهدم دار السلطنة السلجوقية في بغداد حتى أطلق عليه لقب « أسد بني العباس

تتصدع لهيبته الجبال » ... إنّ خليفة بهـذه المواصفـات والانجازات لا بدّ وأن ينتقـده منافسوه أو أعداؤه الذين كانوا يتوقون الى ضعف الخلافة وسقوطها لكي يخـلو لهم الجو السياسي . من هنا نلاحظ بعض الروايات التي تشـكك في إجراءاته وسياساته وخاصة نظام الفتوة الناصـرية حيث اعتبرته دلالة طيش ولهو أدى الى اهمال الخليفـة لشـؤون الدولة والانشغال برسوم الفتوة مثل الرمي بالبندق وتربيـة الطيور وما الى ذلك . وليس في هذه الروايات شـيء مـن الصحة[١٠] . ان النتائج السياسية والعسكرية للفتوة التـي أعادت للدولة هيبتها وللتضامن الاسلامي بين أمراء الاطراف قوته ومتانته أكبر دليل على ضعف تلك الافتراءات .

إنّ هذه المبالغات هي حلقة من سلسلة التشكيك الذي تعرضت اليه شخصية الناصر وسياساته من أعدائه ومنافسيه داخل دار الاسلام وخارجها . وقد وصلت هذه الحملة ذروتها في إتهامه بمراسلة المغول[١١] وحثهم على غزو دار الاسلام !! وهو أمر لا يعقل أن يقوم به خليفة عربي عباسي .

لقد كان نظـام الفتوة خير عضد للناصـر لدين الله في موقفه الصلب ضد المؤامرات التي تستهدف الاسلام والخلافة وبموته ضعفت الفتوة وزالت أبعادها السياسية والعسـكرية رغم أنها استمرت بعده في العراق وأقطار اسلامية أخرى .

هوامش الفصل الثالث

(١) إن أحسن من كتب في نظام الفتوة الاستاذ سعيد الديوه‌جي. الفتوة في الاسلام ، ١٩٤٠ . راجع كذلك عبدالمنعم رشاد محمد ، الخلافة العباسية (بالانكليزية) ، ١٩٦٣ . أحمد أمين ، الفتوة والصعلكة ، ١٩٥٢ . مصطفى جواد ، الفتوة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٨

(٢) أحمد امين ، المصدر السابق ، ص٦٦

(٣) ابن المعمار ، الفتوة ، ص١٤٠ فما بعد

(٤) الدسوقي ، الفتوة عند العرب ، ص٢٣٤ . أحلام النقيب، ص١٥١

(٥) فاروق عمر ، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، ٩٢

(٦) راجع مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار ص٥٥

(٧) ابن الطقطقي ، الفخري ، ص٣٢٢

(٨) رحلة ابن جبير ، ص١٨١

(٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٢ ص٤٤٠ . راجع أحلام النقيب ص١٥٦

(١٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٠ . ابن الساعي ، مختصر ، ص١٠٩

(١١) راجع الفصل الرابع والخاتمة .

الفصل الرابع

سياسة الناصر لدين الله تجاه أمراء الأطراف والملوك

من تراث الماضي القريب :

مرّت الخلافة العباسية بفترة انتعاش موقت حوالي الاربعين سنة بين ٥١٢هـ/١١٨م حتى ٥٥٥هـ/١١٦٠م ،خاض خلالها خلفاء بني العباس معارك سياسية وعسكرية من أجل اعادة نفوذ الخلافة .

فقد قاد الخلفاء الجيوش واصطدموا بالسلاطين السلاجقة ومدّوا الجسور بينهم وبين بعض أمراء الأقاليم والملوك وحاولوا اصلاح الوضع الاقتصادي لدعم المجهود الحربي . كل ذلك لتخليص العراق والخلافة من سيطرة السلاطين السلاجقة المتأخرين[1] .

فالخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠هـ ـ ٢٥٥هـ) بدأ ينتهز الفرصة المواتية لانهاء نفوذ السلاجقة في بغداد وكان سلاحه القوي الذي في يديه هو النفوذ الديني الذي يتمتع به[2] .

فحين اختلف الخليفة مع السلطان مسعود أمر الخليفة بغلق المساجد ثلاثة أيام مما دعا السلطان السلجوقي الى الاستجابة لمطاليبه • وحين طالبه السلطان مسعود السلجوقي بالمال رفض الخليفة طلبه قائلاً[٣]:

« ما رأينا أعجب من أمرك ••• لم يبق في الدار سوى الاثاث فأخذته جميعاً وتصرفت في دار الضرب ودار الذهب وأخذت التركات والجوالي • فمن أيّ وجه تقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها لك فإني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبةً واحدة ظلماً » •

لقد سنّ الخليفة المقتفي سنّة حسنة وضرب مثلاً رائعاً في البذل والعطاء والفداء وخاطر بنفسه في سبيل عزة الوطن والخلافة ضد المغتصبين الدخلاء وبذلك قطع شوطاً مهماً في تقوية الجبهة الداخلية ضد أي هجوم خارجي وكان ذلك عاملاً مهماً في صمود بغداد سنة ٥٥١هـ أمام الهجوم السلجوقي •

لقد تفرغ الخليفة المقتفي لأحوال العراق الداخلية وقام بجملة اصلاحات نجملها فيما يلي :

أولاً ــ نجاح الخليفة في كسب الرأي العام العراقي وخاصة جماهير أهل بغداد الى جانبه حيث تحققوا من إخلاصه في خدمتهم وتحسين أحوالهم الاقتصادية والسياسية(٤) . ولهذا تشير الروايات التأريخية الى تزاحم جماهير الناس في الانخراط في جيش الخلافة.
وقد رفض الخليفة المقتفي طلب السلطان السلجوقي بمصادرة أموال الناس وفضّل بيع أراضيه لسداد الاموال المطلوبة من قبل السلطان السلجوقي..وكان أهل بغداد يقدّرون حق التقدير هذه المواقف من خليفتهم ولذلك وقفوا وقفة رجل واحد حين داهمهم الخطر السلجوقي فالتحم العامة والرؤساء والتجار مع الخلافة للدفاع عن بغداد . وهكذا استعادت الخلافة سلطتها السياسية بالاضافة الى السلطة الدينية .

ثانياً ــ أكد الخليفة المقتفي سلطته العسكرية وذلك بإنشاء جيش قوي جديد في بغداد يعتمد على الخليفة ويدين له دون سواه بالولاء والطاعة ، وكان الخليفة يقود الجيش بنفسه(٥) .

كما اهتم الخليفة بتجهيز الجيش بالعديد من الاسلحة والمعدات . ورمم مواضع بغداد الدفاعية

وأصلح سورها في أماكن مختلفة .. وكأنه كان يتوقع ان سلاطين السلاجقة سوف لا يمهلونه بل سيسددون له ضربة قاضية كما فعلوها بسلفه ، خاصة وان هدفه هو تحقيق استقلال الخلافة الناجز عن النفوذ السلجوقي .

ثالثاً ــ انتهز الخليفة المقتفي الانشقاقات بين أمراء البيت السلجوقي لضرب بعضهم بالبعض الآخر واصطناع البعض من الامراء والاتابكة وضمهم الى الجيش العباسي لتقويته[٦] . إلا أن هؤلاء الامراء لم يكن لهم ولاء دائم بل كانوا ينتقلون من طرف الى آخر حسب مصلحتهم .

ثم أنّ مكانة الخليفة العباسي في نظر القبائل العربية كانت محترمة ، فرغم ما حدث من حالات استثنائية ، فان الخليفة كان عربياً من بني العباس ولا بدّ أن تكون القبائل أقرب الى الخلافة العربية الاسلامية من السلطنة السلجوقية . وقد استعادت الخلافة بهذا العامل في أكثر من مناسبة[٧] .

رابعاً ــ لم يدّخر الخليفة المقتفي وسعاً في تحسين الاوضاع المعاشية والاقتصادية وقد ساعد استتباب الامن على ازدهار الزراعة والتجارة ورفضت الخلافة عدة

مرات طلبات السلاجقة بمصادرة اموال الرعية أو فرض ضرائب جديدة عليهم. بل على العكس استطاع عن طريق وزيره القوي عون الدين بن هبيرة أن يسترد بعض الاقطاعات السلجوقية ويستغلها في دعم بيت المال .

تدهور العلاقة بين السلطان والخليفة :

لم تعجب السلطان محمد السلجوقي الذي كان قابعاً في بلاد فارس ، إجراءات الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله ولذلك بدأ يستعد منذ سنة ٥٤٩هـ/سنة ١١٥٤م للهجوم على العراق واحتلال بغداد ، كما وانه بدأ يحرض أعوانه من الامراء التابعين له بالاستعداد لتنفيذ خطته(٨) . وقد اتجهت قوة محمد السلجوقي والقوات المتحالفة معها صوب بعقوبا فاحتلتها ، وبهذا غدت قاب قوسين أو أدنى من بغداد .

ثم تحركت قوة سلجوقية صوب باب الشماسية ببغداد وعسكرت هناك ، ثم أرسل السلطان محمد الى الخليفة انذاراً يطلب فيه العودة الى المراسيم القديمة بذكر اسم السلطان السلجوقي في الصلوات تلو اسم أمير المؤمنين(٩) . ولكن الخليفة أدرك أن هذه حجة يبرر بها دخوله بغداد ولذلك ظل صامداً متحدياً السلاجقة رافضاً مطاليبهم غير المشروعة. وبدأت

استعدادات الخليفة ووزيره ابن هبيرة لحصار طويــل فقطع الجسر وبدأت سفن الحراسة تجوب دجلة وضربت المناطق التي تسركز فيها الجند السلاجقة في المربعة والقرية وقصر عيسـى وغيرها ، كما هوجمت بعض المناطق التي استقر فيها عســكر السلاجقة من قبل أهل الكرخ وأهل باب البصرة فانســحب الجند وكسب المهاجمون أموالاً ومعدات ســلجوقية • وفي رواية لابن الجوزي ان حالة النفير العام قــد أعلنت ولبس الناس كافة في بغداد السلاح وفرقت الخلافة العباســية كل ما لديها من سلاح وآلة حربية •

« ووقع النفير ببغداد ••• ونودي من الديــوان بحمــل الســلاح فحمله العوام والتجــار والرؤساء • »(١٠)

نشــوب المعارك :

وكان لا بدّ أن تقع الحرب بين المعتدي الباغــي محمد السلجوقي وبين الخليفة المقتفي ومعه جند الخلافة العباســية وكافة أهل بغداد • وتشير العديد من الروايات التأريخيةالى استماتة أهل بغداد في الــدفاع عن مدينتهم وتشيد بذكــر بطولاتهم الفذة والنادرة •ففي رواية أنهم كانوا يرمونأنفسهم في الماء وبأيديهم السيوف والمقاليع والنشاب ويصعــدون الى سفن العدو • وفي رواية أخرى(١١) :

« ... وعمل السلطان محمد أربعمائة سلّم ليصعد الرجال فيها الى السور ، وزحفوا فقاتلوا ، ففتح أهل بغداد أبواب البلد وقالوا : أيّ حاجة بكم الى السلالم ؟! هذه الابواب مفتّحة فادخلوا منها ، فلم يقدروا على أن يقربوها » !

وحدث أن مدّ السلاجقة جسراً على دجلة للعبور على جيش الخلافة ولكنهم ازدحموا على الجسر فوقع بهم فانتهز جيش الخلافة وأهل بغداد الفرصة فهاجموا دار السلطنة السلجوقية ببغداد وأخذوا ما فيها من أموال وأمتعة وأثقال. وانقلب الميزان وغدا في جانب جيش الخلافة العباسية فبعد أن كانت بغداد محاصرة غدا جيش السلاجقة وكأنه محاصر حيث امتنع أهل الموصل من ارسال المؤن والميرة اليه ، كما وان المؤن التي كانت تصله من البطائح وواسط منعتها سفن جيش الخلافة مما اضطرها الى العبور الى نهر الفرات عن طريق نهر عيسى ثم تتجه ثانية الى دجلة عن طريق نهر الصراة فوق بغداد !.

كما وان جيش اتابكة الموصل وهو أكبر قوة مساعدة لجيش السلاجقة أثناء الهجوم الحالي قد فتر ولم يشارك في الحصار بل ان نورالدين محمود بن زنكي أرسل رسالة الى أمير الموصل والى قائد الجيش يأمرهما باسترضاء الخليفة

المقتفي ويلومهما على الولاء لمحمد السلجوقي[١٢] . هذا بالاضافة الى الخلافات القوية بين أمراء السلاجقة أنفسهم وورود الاخبار والاشاعات حول استحواذ أمراء آخرين في بلاد فارس على مقاطعاتهم وأموالهم فعقدوا العزم على الرحيل عن بغداد . وبهذا انتهى الحصار السلجوقي لبغداد دون أن يحقق أي غرض من أغراضه .

الصبر والصمود يحققان النصر :

إنّ صمود أهل بغداد وجيش الخلافة وقوة معنوياتهم أدى الى إفشال الهجوم السلجوقي على بغداد . كما وان سياسات الخليفة المقتفي وإجراءاته الاقتصادية والعسكرية التي أشرنا اليها كانت عاملاً مهماً في تحقيق النصر .

لقد كان السلطان محمد السلجوقي مستعداً أتم الاستعداد للهجوم وساعده العديد من أمراء الاطراف إلا أن العزيمة القوية للخليفة والمعنويات العالية لجنده ولأهل بغداد أدى الى اربالك الجند السلاجقة وخذلانهم . ولهذا يقول أحد الامراء السلاجقة مبرراً الفشل :

« والله ما كان إلا أمر رباني أحاط بنا الخذلان »!![١٣]

أما المؤرخ البنداري فيقول :

« وأصبحت بغداد وقد أتاها الله بالفرج ... ونصر الحق وحق النصر ... وانتشرت عساكر أمير المؤمنين في البلاد .. وعرفت الأعاجم أنه لا مطمع بعدها في بغداد »[١٤] .

ويبدو أن العديد من المؤرخين يتفقون بأن أطماع أمراء السلاجقة قد انقطعت بعد هذا الهجوم عن بغداد .

لقد حقق أهل بغداد وخليفتهم النصر على العدو القادم من بلاد فارس وأجبروه على العودة من حيث أتى ، إلا ان ذلك لم يكن يسيراً بل مقابل تضحيات كبيرة ولهذا يقول ابن الاثير انه حدث « موت كثير » بسبب الازمة التي مرت على بغداد[١٥] . وفي رواية أخرى ان صلوات الجمع عُطّلت عدة مرات بسبب اشتداد الحرب حيث لم تصلى الجمعة إلا في جامع القصر[١٦] . وقد ابتدع الوزير طريقة جديدة ليمنع الغلاء في أسعار المواد الغذائية فكان يوزع الغلات على الجند بكثرة . وكان الجند يحتاجون أثمانها بالدينار ولهذا باعوها في الاسواق للناس ولم يرتفع سعرها ولا شحت من الاسواق . وفي رواية[١٧] أن الخليفة المقتفي كان يحرص على عدم تفشي الغلاء وارتفاع الاسعار أثناء الحصار ولهذا كان يشرف بنفسه على طرح الغلات والمحاصيل والنفط في الاسواق .

الناصر والنفوذ السلجوقي :

لقد كان موقف الخليفة المقتفي لأمر الله مثالاً يحتذى به من قبل خلفه من بني العباس وخاصة الخليفة الناصر لدين الله الذي سار على نفس السياسة الرشيدة للمقتفي فهدم (دار السلطنة) السلجوقية ورفض طلب طغرل الثالث بذكر اسمه على الخطبة ، ووسع نفوذ الخلافة العباسية فشملت العراق بأجمعه ، كما استرد الاحواز وأعقبها بأصفهان وهمدان[١٨] .

لقد تـوّجت هذه الانجازات بإنهاء السيطرةالسلجوقية رسمياً عن العراق سنة ٥٩٠هـ/سنة١١٩٣م وبذلك تحقق للخلافة وللعراق الاستقلال الناجز عن أي نفوذ أجنبي على يد الناصر لدين الله . ولكن كيف تحقق ذلك كله؟؟

الواقع ان الناصر عمد الى أساليب عديدة لتحقيق هدفه[١٩] ، لعلّ أهمها استغلال المنافسة بين الامراءالسلاجقة الجدد من أجل إضعاف النفوذ السلجوقي على أقاليم الخلافة .

أما الأسلوب الآخر الذي إعتمده الخليفة الناصر فهو تحريك القوة الجديدة المتنامية في شرقي مناطق النفوذ السلجوقي (أي اقليم خوارزم) والاستعانة بها كقوة رادعة في وجه السلاجقة مفوضاً لخوارزمشاه علاءالدين تكش

الخوارزمي كل الاقاليم التي يسلبها من السلاجقة في المشرق وخاصة في بلاد فارس •

لقد استطاع اتابك اذربيجان (إيلدكز) الذي كان اتابكاً على أرسلان شاه بن طغرل بن محمد أن يفرضه سلطاناً على سلاجقة العراق وكانت عاصمتهم في همدان • وكان ايلدكز هذا صاحب القوة والسلطة في السلطنة وانتقل نفوذه بعد موته الى ابنه جهان بهلوان الذي بادر الى التخلص من ارسلان شاه وعين محله أخاه طغرل الثالث الذي كان ما يزال طفلاً صغيراً ليس له من الامر شيء وإنما الأمر كل الأمر بيد الاتابك جهان بهلوان الذي اتسعت اتابكيته لتضم أذربيجان وأصفهان والري والجبل ومناطق أخرى مجاورة •

بدأ الاحتكاك بين الخليفة الناصر والسلطان طغرل الثالث بعد وفاة جهان بهلوان سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م حيث خلفه أخوه قزل أرسلان الذي اصطدم بطغرل الثالث واختلف معه حول السلطة والنفوذ • إن هذا الموقف رفع قزل أرسلان الى مراسلة الخليفة الناصر وطلب مساعدته ضد طغرل الثالث، وانتهز الخليفة هذه الفرصة المواتية ليضرب السلاجقة بعضهم بالبعض الآخر • وكان من مصلحة الخليفة أن يساند الاتابك قزل أرسلان الذي بادر بطلب المساعدة من الخلافة بنفسه بدلاً من السلطان طغرل الذي تحركه طموحات واسعة أهمها

استعادة نفوذه في عاصمة الخلافة بغداد حيث طلب من الناصر إعادة دار السلطنة السلجوقية لكي يعـود الى بغداد ويستقر فيها !! فما كان من الخليفة إلا أن هدمها ولم يبق من أثرهـا شيئاً يذكر •

لقد كانت نتيجة المعارك بين قزل أرسلان وطغرل الثالث انتصار الاول وسجن الثاني في أذربيجان ولكن الامر لم يدم طويلا حيث توفي قزل وانتشرت القلاقل والاضطرابات التي استغلها طغرل فهرب من سجنه بمساعدة أعوانه الذين تجمعوا حوله وأعادوا له نفوذه •

ولكن الخليفة الداهية الناصر لدين الله لم ييأس أو يتوانَ بل بدأ يراسل القوة الجديدة الخوارزمية التي ظهرت في شرقي العالم الاسـلامي ، وكان يقودهـا في تلك الفترة علاءالدين تكش الخوارزمي وشجعه على الاصطدام بطغرل الثالث الذي يحاول النيـل من الخـلافة العباسـية مضفياً الشرعية على تكش واعداً إياه بمنحه كافة الاراضي والاقاليم التي كانت في حوزة السلاجقة في بلاد فارس • وهكذا ضرب الناصر « عصفورين بحجر واحد » محاولاً انهـاك قوتهمـا عسكرياً وبالتالي إنهـاء طموحاتهما بالاستيلاء على العـراق والخلافة العباسية •

لقـــد كانت معركـــة الري بين طغـــرل الثالث ونكش الخوارزمي حاسمة حيث خسر طغول المعركة وقتل فيها سنه ٥٩٠هـ/سنة١١٩٣م وانتهى بمقتله نفوذ سلاجقة العراق •

لقد ابتهج الناس بزوال نفوذ السلاجقة من العراق،كما اتسع نفوذ الخلافة ليشمل كل العراق (السواد) حيثوصل الى تكريت على دجلة والى داقوقا شرقي دجلة • واســترد الخليفة نفوذه على الأحواز وكذلك همدان واصفهان وكانت هذه الأقاليم تتبع العراق ادارياً في تلك الفترة •

التتر والخوارزمية(٢٠) :

إن مصدر الخطر على العراق والخلافة العباسيةوحاضرتها بغداد يظل على الدوام من الشرق ، فقد كان على الخــلافة العباسية أن تواجه الحركات الخرمية في بلاد فارس في العصر العباسي الاول ثم واجهت خطر الصفاريين والزياريين والبويهيين في العصور التالية • وفي هذا العصر ـ موضوع بحثنـا ـ كان على الخلافة أن تجابه خطر السلاجقة وتحديات الحشيشية (النزارية) ثم الخوارزمية •

ولقد أشرنا سابقاً بأن الخليفة الناصر استعان بعلاءالدين تكش خوارزمشاه للقضاء على النفوذ السلجوقي في بــلاد

فارس • على أن خوارزمشاه هذا اعتبر نفسه وريث السلاجقة حيث سيطر على الاقاليم التابعة لهم، بذلك أصبح أكبر قوة بين أمراء المنطقة • ويبدو أن العديد من الحكام الذين سيطروا على الاقاليم الفارسية يتأثرون بالبيئة ويغريهم الموقع الجغرافي فيدفعهم الغرور والكبرياء والطموح المتعالي الى الاستخفاف بالخلافة في بغداد والتفكير في الحصول على مكانة فيها وعلى موطن قدم في العراق!!• وهذا ما حدث لخوارزمشاه علاءالدين تكش الذي أساء استقبال وفد الخليفة ورفض أن يلبس خلع الخلافة وتعالى عليها • كما نازع الخلافة العباسية على الاحواز وطلبها لكي « تكون كفاية لاتباعه » • إلا أن الناصر رفض التنازل عن الاحواز ، بل أرسل جيشاً احتل أصفهان وسيّر جيشاً لاحتلال همدان •

وأكثر من هذا حاول الناصر الاستعانة بأعداء خوارزمشاه تكش من الامراء الخوارزمية واتصل بالخزر وطلب منهم أن يتحركوا ليمنعوا تكش من دخول العراق • ثم كتب الخليفة الناصر الى غياث الدين الغوري « يأمره بقصد بلاد خوارزم ليعود (تكش) عن قصد العراق » • وهكذا نجح الناصر في خلق مشاكل عديدة واثارة الاضطرابات في الخوارزميين الشرقية وبذلك أبعد الخطر الخوارزمي عن العراق ولو الى حين •

الهجوم الاول على بغداد :

ان خطر الغوريين على الخوارزميين أرجأ الهجوم الخوارزمي أكثر من عشرين سنة وخلال هذه الفترة توفي علاءالدين تكش وأعقبه في حكم الامارة الخوارزمية ابنه علاءالدين محمد ولكن مشاغله في الاقاليم الشرقية أرجأت تحركه نحو العراق لبعض الوقت .

بدأ خوارزمشاه علاءالدين محمد في التخطيط لتنفيذ طموحاته وطموحات أبيه من قبله في احتلال العراق وإقامة الخطبة له في بغداد ومساجدها منذ ٦٠٧هـ وقد طلب خوارزمشاه بصراحة من الخليفة الناصر لدين الله العباسي لا تخلومن وقاحة :

« أن يكون أمر بغداد والعراق لي (أي لعلاءالدين) ولا يكون لك (أي الخليفة) إلا الخطبة » !!

ولما رفض الخليفة الناصر هذا الطلب واستنكره أشد الاستنكار خاصة وأن الناصر هو الذي أعاد للخلافة هيبتها واستعاد الاقاليم التابعة لها اداريا .. لما رفض الناصر ذلك عمد خوارزمشاه علاءالدين الى اختلاق أنواع المبررات لتبرير شن حرب على العراق ، فأثار القلاقل والاضطرابات الداخلية حيث شجع مماليك الخلافة على التمرد داخل بغداد ولكن

الخلافة سحقت التمرد • ثم تدخل في مشكلة ولاية العهد واستمر يدعو له في الخطبة قائلاً :

« لم يثبت عندي موجب لعزله وجعل ذلك حجة لطروق العراق بالعساكر ليرد خطبته » !! فأي تدخل سافر ومفضوح في شأن من شؤون الخلافة العباسية وفي سياسة العراق الداخلية وفي مسألة تخص العباسيين ؟ ولكنها كما تقول الرواية بوضوح حجة لتبرير اجتياح العراق وغزو بغداد وتقرير ما يريد خوارزمشاه تقريره بعد دخوله بغداد •

وأكثر من هذا وذاك فقد جمع خوارزمشاه فقهاء وعلماء الأقاليم التابعة له وأمرهم باصدار فتوى بعدم شرعية الخلافة العباسية وأن خلفاء بني العباس أهملوا أمر الجهاد ولم يتتبعوا أهل البدع والضلالة بالقمع • وبعد صدور الفتوى أمر خوارزمشاه باسقاط اسم الناصر من الخطبة والسكة• كما وأن خوارزمشاه عمد الى اثارة الرأي العام الاسلامي ضد الخلافة العباسية بالعراق،حيث نظم دعاية واسعة للتشهير بالخلافة معلناً أنه عثر على رسائل من الخليفة الناصر فيها تحريض للغوريين على مهاجمة خوارزمشاه مطالباً بعزل الناصر لأنه يقسم جماعة المسلمين ويحرض بعضهم على البعض الآخر!! • خوارزمشاه يبيح لنفسه مهاجمة الخلافة بالعراق ولا يسمح للخلافة بالاستعانة بحلفائها الغوريين لايقافه عند حده •

سار خوارزمشاه علاءالدين محمـــد بجيش جرار ســـنة ٦١٤هـ/١٢١٧م نحو العراق مستهدفاً احتلال بغداد ولم تفد معه رسل الخليفة الناصر التي أرسلها لترده عن قصدهوتنصحه بطاعة الخليفة .

إتخذ الخليفة الناصر جملة من الاجراءات لحماية العراق من الهجوم المرتقب وتمكن من كسب اتابكة اقليــم فارســ وأذربيجان ضده كما وأن الحشيشية النزارية الــذين دانوا بطاعة الخلافة العباسية خلال هذه الفترة ولمدة قصــيرة من الزمن استطاعوا اغتيال (أوغلمش) عامله في غربي بلاد فارس وبهذا استطاع الناصر أن يكون حاجزاً بينه وبينخوارزمشاه.

ومع ذلك فقد فرق الناصر السلاح وصرف الامــوال للتحصين وإقامة المتاريس حول بغداد ولكن خوارزمشاه لــم يتمكن من دخول العراق حيث صادفته بعد تركه همـــــدان عاصفة ثلجية عاتية أهلكت دوابه والكثير من رجاله المقاتلين. كما تعرضوا لغارات من السكانالمحليين مماجعل خوارزمشاه مضطراً الى الانسحاب بالبقية الباقية من جيشه منهار العزيمة خائر القوى.ويعلن ابن الاثير على ما حل بالهجوم الخوارزمي على العراق قائلاً :

« وهذا من جملة سعادات هذا البيت العباسي لم يقصده أحد بأذى إلا لقيه فعله وخبث نيته .. »

وكان الأحرى بابن الاثير أن يضيف بأن أهل العراق بما عرفوا به من قديم الزمان من التحلي بروح التصدي والمقاومة العنيدة للمحتل الغازي جعل خوارزمشاه يفضل الانسحاب على الاهانة التي لحقت بسلفه يعقوب الصفار في معركة دير العاقول الشهيرة • ان روح التضحية والبسالة التي أبداها أهل العراق والأقاليم الاخرى التابعة للخلافة العباسية حيث تشير بعض الروايات أن بعض الأهالي كانوا يتنكرون بزي الجند الخوارزمية ويهاجمونهم بدعوى أنهم منهم مما جعل علاءالدين محمد يأمر بقتل كل عراقي يتنكر بلبس قلنسوة خوارزمي ! هي التي أجبرت خوارزمشاه على الانسحاب •

وتجاه هذه المقاومة الباسلة للغزاة استعمل خوارزمشاه سياسة الشدة والأرهاب في المناطق التي احتلها الى درجة أن أحد المؤرخين يصف سياستهم « بأنها لم تحدث على أيدي الكفار وقد نزعت من قلوبهم رحمة الاسلام » ومما هو جدير بالذكر أن الخوارزمية لتبرير فشلهم في غزو العراق اتهموا الخليفة الناصر العباسي بالاتصال بالمغول وتحريضهم بالهجوم على حدود الامارةالخوارزمية الشرقية والقضاء علىعلاءالدين محمد • وقد لمح المؤرخ ابن الاثير الى هذا الاتهام الخطير ونقله منه من جاء بعده من المؤرخين •

وفي رأينا أن هذه التهمة ضعيفة ولا تقوى أمام النقـد الموضوعي للروايات وإذا كان الخليفة الناصر قد اتصل بأمراء بـلاد ما وراء النهر فانه على ما يبدو قد اتصل بخانات القره خطاي وبالغوريين المسلمين لتحريضهم ضـد الخوارزمية من أجل إعاقة زحفهم نحو العراق ٠

الهجوم الثاني على بغداد :

لم يكرر خوارزمشاه علاءالدين محمد محاولته لغـزو بغداد حيث توفي سنة ٦١٧هـ/سنة ١٢٢٠م وخلفه في حكـم الخوارزميين ابنه جلال‌الدين منكبرتي وكانت سياسته معادية للخليفة الناصر العباسي حيث توسـل كأبيه بكافة الوسـائل لاسقاط الخلافة العباسية مع أنه كان يدرك بأن الخطر المغولي بات على أبواب العالم الاسلامي ٠

يقول الدكتور القزاز « ويظهر أن الحقد على الخلافـة كان قد غلب على جلال‌الدين فملك عليه عقله » كمـا وأنه كان يعتقد بأن الناصر كان سبباً في هلاك أبيه علاءالدين محمد فحين كتب الى الملك المعظم عيسى صاحب دمشق يحثه على التحالف ضد الناصر العباسي قال له :

« تحضر ومن عاهدني واتفق معي حتى نقصـد الخليفة فإنه كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار » ٠

ويبدو أن جلالدين منكبرتي كان يحاول ايجاد الاعذار والتبريرات من أجل غزو العراق إتماماً لخطة أبيه ولما فشــل في ايجاد حلفاء له بين أمراء المسلمين عزم على التقــدم بنفسه نحو العراق فاستولى على اقليم الاحواز (عربستان) التابع ادارياً للخلافة المركزية في بغداد • ولكن منكبرتي فشــل في احتلال عاصمة الاحواز آنذاك تستر •

أرسل الخليفة الناصر جيشه لحرب جلالالدين منكبرتي في الأحــواز وجرت المعركة في الاحــواز سنة ٦٢٢هـ/سنة ١٢٢٥م وانتصر منكبرتي على جيش الخلافة العباســية الذي انسحب نحو العراق • ثم أعاد الكرة على تســتر ولكــن الجيش العباسي صمد مدافعاً عن عاصمة الاحواز مما اضطر منكبرتي وجيشه الى دخول حدود العراق الشرقية فاصطدموا بالجيش المــدافع عن البصــرة الذي أوقع بهم ومنعهــم من دخولها •

ان فشل منكبرتي في احتلال أية مدينة مهمة في الأحواز وجنوبي العراق جعله ينهب ويدمر كل ما تقــع عليه يده في القرى والمزارع التي مر بها فانتشر السلب والنهب واضطراب حبل الأمن وقطعت الطرق ونهبت القوافل على الطريــق بين بغداد والبصرة •

اندفع منكبرتي شمالاً باتجاه بغداد وأرسل الى الخليفة الناصر رسولاً حمل رسالة الى دار الخلافة وصفهــا أحــد

المؤرخين بأنها « رسالة تعنت وتعتب » مما يدل على الحالة النفسية السيئة التي كان يعيشها • وحين أصبح على قاب قوسين أو أدنى من بغداد لم يهاجمها بل واصل سيره شمالاً وعسكر في بعقوبا •

أما الخليفة العباسي الناصر فقد استعد تمام الاستعداد للدفاع عن سيادة العراق وكرامة أبنائه وتأهب أهل بغداد أهل الصولات والجولات الذين دافعوا عنها ضد طاهر بن الحسين الفارسي وضد يعقوب بن الصفار الفارسي وضد القادة الاتراك المتسلطين في سامراء •• استعدوا للدفاع وأصلحوا السلاح وهيأوا النفط ونصبوا المجانيق على الاسوار • وفرق الخليفة الناصر المال والسلاح •

كما اتصل الخليفة الناصر بحاكم أربل زين الدين كوكبري وطلب اليه مهاجمة جيش منكبرتي وقطع خطوط تموينه ومواصلاته •

وتجاه هذه الظروف وادراك منكبرتي لاستعدادات العراقيين وخليفتهم الناصر ، انسحب منكبرتي شرقاً بعد أن أمضى ثمانية عشر يوماً في بعقوبا • وبعد أن نهب بعض القرى المحيطة ببغداد من أجل تموين جيشه الذي قطعت ميرته • كما هاجم منكبرتي داقوقا وحاصرها ثم فتحها وأباحها لجنوده الذين عاثوا فيها فساداً وقتلاً ونهباً •

وهكذا فشل الهجوم الثاني للخوارزمية الذين صمموا وبعناد شديد على احتلال بغداد بينما صمم أهل العراق وبثبات أقوى وعزيمة أصلب على الدفاع عن كرامة العراق وسيادته وبالتالي الدفاع عن كرامة العروبة وقيم الاسلام المتمثلة بالخلافة العباسية .

لقد أبعد جلال الدين منكبرتي بسياسته هذه الكثير من أمراء المسلمين وعلى رأسهم الخلافة العباسية وجعلهم جميعاً خصوماً له يشكون في أهدافه التوسعية وأطماعه في أقاليمهم ولهذا كله ترك وحيداً في الميدان يجابه مصيره المحتوم أمام جموع المغول الذين قضوا عليه وعلى إمارته سنة ٦٢٨هـ/ سنة ١٢٣١م .

الناصر والحشيشية الاسماعيلية(٢١) :

تمثل الحركة الحشيشية الباطنية جهود الفرس المجوس للتغلغل الى العقيدة الاسلامية وتخريبها وتدمير أصولها واحلال عقيدة ومثل وقيم أخرى محلها . وقد استطاعت هذه الحركة التي تحقق مكاسب سياسية مهمة في بلاد فارس على يد الحسن بن الصباح منذ سنة ٤٨٣هـ/سنة ١١٩٠م حيث نجح هذا الداعية المتطرف في كسب سكان من بلاد الديلم وقزوين وأذربيجان . وشكلت خطراً كبيراً على العراق

والخلافة العباسية وهددوا الناس بما ارتكبوه من اغتيالات وعمليات ارهاب في أرجاء مختلفة من العالم الاسلامي .

إلا أن سياسات الناصر لدين الله وشعور الحشيشية بقوة الخلافة العباسية في عهد الناصر أجبرهم على إعادة تقويم موقفهم في الأقل خلال تلك المرحلة . فقد أظهر الحسن الثالث بن محمد بن الحسن تمسكه بالاسلام واقامة الفرائض وبناء المساجد ، وراسل الخليفة الناصر من أجل التحالف معه في صراعه ضد الخوارزمية .

ولكن الحشيشية اغتالوا إمامهم المعتدل وعادوا الى عقيدتهم الباطنية الملحدة .. وهكذا فإن قوة الناصر وسياسته أثبتت فاعليتها حتى مع الحشيشية الذين اتبعوا خطة تنقذهم من سطوته ولو لبعض الوقت حيث أظهروا ميلهم الى التضامن ووحدة الصف مع العالم الاسلامي بقيادة الخليفة الناصر ولكن هذا التظاهر لا يمكن أن يستمر طويلاً حيث تذبذبوا بين العباسيين والخوارزمية ، كما حاولوا أن يتقربوا الى المغول أثناء زحفهم في بلاد فارس ، ولكن هولاكو دمّر قلاعهم عن آخرها .

ولا يختلف موقف الحشيشية في بلاد الشام عن موقفهم في بلاد فارس فقد كانوا حجر عثرة ضد مشاريع صلاح الدين الأيوبي ممثل الخلافة العباسية في بلاد الشام من أجل

التضامن ووحدة الصف . وقد حاول الحشيشية اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة ، وهم في محاولاتهم الحاقدة ضد صلاح الدين إنما يحاولون قتل خططه وطموحاته في التحرير والوحدة .

أما علاقات الحشيشية في بلاد الشام مع الافرنج الصليبيين الغزاة فلا بدّ أن نشير انه لم يحدث خلال الفترة موضوعة البحث تصادم حربي جادّ وفعلي بينهم وبين الفرنج، بل على العكس من ذلك فان المدن الصليبية كانت تمنح الملجأ والمأوى للحشيشية الهاربين من حلب ودمشق وبانياس.وأكثر من ذلك فإنّ احتلال الفرنج لبانياس كان لحمايتها من المسلمين وبطلب من زعيم الحشيشية !!

إنّ وقوف الحشيشية ضد صلاح الدين الأيوبي كان يمثل موقفاً معارضاً للخلافة العباسية لأن صلاح الدين كان السلطان الشرعي في بلاد الشام في نظر الخليفة الناصر لدين الله . ولذلك كان من الطبيعي أن يقف ضده الفرنج والحشيشية والامراء الاتابكة الانفصاليون وهم الاعداء التقليديون للخلافة العباسية والناصر لدين الله . لقد كان صلاح الدين الايوبي الممثل الحقيقي في بلاد الشام لكل تطلعات ومثل وقيم وطموحات الناصر لدين الله ، وقد قام بمحاولات جادة وناجحة مثل سيده خليفة بغداد ، لانتشال

المجتمع من الانحطاط السياسي والعسكري والاخلاقي فخلق حافزاً للتضامن ووحدة الصف كان كافياً للثبات ومواجهة التحدي •

الناصر وحكام بلاد الشام :

كان المسرح السياسي في بلاد الشام وكذلك الجزيرة الفراتية يتكون في هذه الفترة من كيانات سياسية ومناطق نفوذ لامراء وسلاطين متعددين بعضهم من الاتابكة وبعضهم من الأيوبيين وآخرين من الحشيشية والاسماعيلية أو من الافرنج الصليبيين •

لقد كان موقف الخليفة الناصر من بلاد الشام واضحاً فهو مع كل دعوة الى وحدة الصف والتضامن بين القوى الاسلامية ضد الحركة الحشيشية المتطرفة الهدامة في الداخل وضد الافرنج المتسترين بالدين في الخارج •

فقد كان التعاون الفرنجي ــ الحشيشي أمراً واقعاً قبيل هذه الفترة وخلالها • وسواء كان هذا التعاون سرياً أم علنياً فإنه لم يكن يخفى على الخليفة الناصر الذي يمتلك جهاز مخابرات فعال ونشط وكذلك كان صلاح الدين الايوبي على علم تام بتحركات المتآمرين •

لقد أشرنا في مناسبة سابقة الى صور من التعاون الفرنجي ـ الحشيشي ونشير الآن الى التعاون بين راشدالدين سنان زعيم الحشيشية السورية وأملريك ملك بيت المقدس الذي تمثل بإرسال الوفود بين الطرفين من أجل التفاهم والتنسيق ضد القوى الاسلامية .

كما كونت الحشيشية حلفاً مع فرسان الاسبتاريةالافرنج ضد صلاح الدين والامراء التابعين له . وأنّ الحشيشية كانت تنشر دعوتها في بلاد الشام تحت حماية هؤلاء الفرسان للأمراء الذين يعارضون خطط الاسبتارية . وأكثر من ذلك الصليبيين ، مقابل تعهد الحشيشية بالقيام بعمليات اغتيال فقد أشار بنيامين التطيلي الذي زار المنطقة في ذلك الوقت الى تعاون اليهود مع الحشيشية ، والى وجود أربعة آلاف يهودي يقاتلون مع الحشيشية السورية بموافقة رأس الجالوت (زعيم اليهود الروحي)[٢٢] !!

إزاء هذا الموقف الخطير كان الناصر يدرك ضرورة دعم القوى الاسلامية التي تدعو الى الوحدة والاسلام الصحيح ، كما وأن صلاح الدين وبقية الامراء كانوا بحاجة ماسة الى مساندة الخلافة العباسية من خلال عهود التولية والاعتراف بشرعية حكمهم ومراسم التقليد والتشريف .

ولم يكن الامر بالنسبة للخليفة الناصر سهلاً فعملية حفظ التوازن بين أمراء بلاد الشام عملية دقيقة وحساسة،ذلك

لان بعض الامراء من الاتابكة وغيرهم كانوا لا يفهمون مقاصد صلاح الدين ويخشون من مشاريعه على نفوذهم واستقلاليتهم في القرار السياسي في المناطق التي يحكمونها • ويبدو أن الخليفة الناصر كان يفضل العمل السياسي والتدريجي على العمل العسكري الحاسم ، ولهذا كان كثيراً ما يتوسط بين صلاح الدين والأمراء الايوبيين من بعده وبين حكام الاتابكيات الآخرين من أجل الوصول الى تفاهم سياسي وتجنب سفك الدماء بين المسلمين •

بينما كان صلاح الدين الايوبي وهو يعيش الواقع السياسي والحربي في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ويدرك ضرورة العمل قبل فوات الاوان يفضل الحسم سواء بالعمل السياسي أو العسكري • ومهما يكن من أمر فقد كانت علاقات الخليفة الناصر جيدة على العموم مع اتابكية الموصل وأتابكية أربل • فقد أرسل التقليد الى بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل ومنحه الوصاية على نورالدين أرسلان شاه أتابك الموصل الصغير بعد وفاة والده • كما عمل الناصر جهده لحفظ التوازن بين أتابكية الموصل واتابكية أربل دون أن يفرّط باحداهما[٢٣] •

أما علاقة الخليفة الناصر مع السلطان صلاح الدين الايوبي فقد كانت علاقة ودية على طول الخط ولعل سبب

ذلك يعود الى إدراك كل منهما لأعباء المسؤولية الملقـاة على عاتقه في تلك الظروف الحرجة التي تستدعي تضافر الجهـود ووحدة الصف والتضامن للثبات للاعداء وطردهم من الارض. كما وان هناك سبباً آخر لذلك الود والتفاهم بين الطرفين هو ما يتحلى كل منهما من مثل أخلاقية وقيم اسلامية ونكران ذات جعل كلاً منهما وحسب موقعه رمزاً للوحدة وحافزاً للثبـات يمكن أن نختصرها بجملة واحدة قالها صلاح الدين الايوبي:

« فإنني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر »!!(٢٤)

لقد كان صلاح الـدين منذ البداية مواليـاً للخلافـة العباسية معارضاً للتفكك والانقسام بين أقاليم الدولـة لذلك فقد بادر بتهنئة الناصر على تنصيبه خليفة للمسلمين فرد عليه الناصر بإقراره في مكانته وتشريفه بالتقليد وخلع السلطنة.

لقد بارك الخليفة الناصر لدين الله كل جهود صلاح الدين الايوبي من أجل توحيد الصف واخضاع النزعات الانفصالية أو الاستقلالية أو اللاأبالية في بلاد الشام، كما بارك جهـوده ضد الافرنج وكان يرسل له الخلع والتشريفات في كل مناسبة تعبيراً عن تقديره وتأييده لتلك الجهود الكبيرة.

ولم ينس صلاح الدين وهو في ذروة انتصاره في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/سنة ١١٨٧م الخليفة الناصر حيث أرسـل

له وفدا يخبره بالنصر الحاسم ومع الوفد عدد من أسرى الافرنج وبعض غنائم الحرب • كما أرسل صلاح الدين كتاباً مفصلا الى الناصر يشرح له تحريره لبيت المقدس من جيوش الافرنج الأوربيين الغزاة • (راجع الملحق) •

وقد أجاب الناصر على صلاح الدين بأن أرسل له هدايا رمزية تدل على تأييد الخلافة لأعماله العظيمة وإكبارها لجهوده الموفقة منها حملان من القنا وحملان من النفط وثلة من الجند الزراقيين • ويبدو أن الخلافة لم يكن لديها من المال لتعين صلاح الدين فطلبت منه أن يقترض من التجار عشرين ألف دينار باسمها ولكن صلاح الدين اعتذر عن ذلك واستعفى عن الاقتراض[٢٥] •

لقد استمرت العلاقات بين الناصر وصلاح الدين وأبنائه من بعده ودية حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ والناصر سنة ٦٢٢هـ ، فقد كان كلاهما من الشخصيات الفذة في تأريخنا التي إئتلفت وتكاتفت في فترة عصيبة لدرء الخطر عن دار الاسلام •

إعادة تقويم سياسة الناصر لدين الله :

إن الاعمال التي أنجزها الخليفة الناصر لدين الله كانت كبيرة وجريئة إذا أخذنا بنظر الاعتبار الظروف الصعبة التي

كانت تمر بها الخلافة العباسية والعالم الاسلامي ككل وكذلك الأزمات والمخاطر المحدقة بالمجتمع العربي الاسلامي داخلياً وخارجياً •

يبدو من ذلك كله أن سياسات الخليفة الناصر العباسي تجاه أمراء الأطراف والسلاطين نجحت في تحقيق وحدة الصف والتضامن ضد الاعداء داخل دار الاسلام وخارجه وأوقفت دون شك المخاطر المتربصة بالخلافة من الشرق والغرب (الفرنج) ، كما وانها أضعفت الى حد كبير فعاليات الباطنية الحشيشية في الداخل محققاً وحدة بين كافة فئات المجتمع وطوائفه من خلال نظام الفتوة واجراءات الانعاش الاقتصادي •

بدايات الاحتكاك المغولي بحدود (دار الاسلام) :

لا بدّ أن نؤكد بأن المغول بدأوا بالاحتكاك بالعالم الاسلامي في السنوات الاخيرة من عهد الخليفة الناصر لدين الله ، ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا قد شكلوا خطراً على (دار الاسلام) • كما وأن خططهم وطموحاتهم لم تكن معروفة فيما يتعلق بالخلافة أو أقاليمها ، رغم أنهم دخلوا في صراعات محدودة في البداية مع كيانات اسلامية محاددة لهم •

لقد كانت الصفحة الاولى[٢٦] من الاحتكاك المغولي بالعالم الاسلامي والتي تبدأ من سنة ٦١٦/٦١٧هـ الى سنة

٦٢٠هـ وهي السنة التي توفي فيها جنكيز خان عبارة عن غارات متعددة وغزوات مفاجئة على مدن وأقاليم بلاد ما وراء النهر وخراسان وهدفها جس النبض وتحسس قوة أمراء المسلمين • ولم يذكر التاريخ للخليفة الناصر أي دور أو موقف معين تجاهها خاصة وانه كان في أواخر حياته مشلولاً أنهكه المرض حيث توفي سنة ٦٢٢هـ •

هوامش الفصل الرابع :

(١) فاروق عمر ، الخلافة العباسية في عصورها المتأخره ، ص٨٥ فما بعد
(٢) المصدر السابق
(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ١٠ ص٦٦
(٤) راجع مثلا : ابن الاثير ، الكامل ، ط١ ص٢١٤ . الذهبي، العبر ، جـ٤ ص١٤٥ . البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٢٩ فما بعد
(٥) فاروق عمر ، المصدر السابق ، ص٨٨
(٦) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص١١٤
(٧) فاروق عمر ، المصدر السابق ، ص٨٩
(٨) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ١٠ ص١٦٥
(٩) الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص١٣٤
(١٠) ابن الجوزي ، جـ١٠ ص١٦٩–١٧١
(١١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١١ص١٤
(١٢) المصدر السابق ، جـ١١ص٢١٤
(١٣) ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، ص٢٢٩ فما بعد .
(١٤) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٢٣٣
(١٥) ابن الاثير ، جـ١١ ص٢١٥
(١٦) ابن الجوزي ، جـ١٠ ص١٧١
(١٧) الذهبي ، العبر ، جـ٤ ص١٤٥
(١٨) فاروق عمر ، المصدر السابق ، ص٩١–٩٢
(١٩) حول فعاليات الناصر مع السلاجقة راجع : الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية . وكذلك البنداري ، المصدر السابق وابن والاثير ، المصدر السابق.
(٢٠) حول فعاليات الناصر مع الخوارزمية راجع : مقالنا في مجلة بين النهرين ، ١٩٨٥ ، وفيه تفاصيل عن المصادر والمراجع

(٢١) حول تفاصيل هذه الحـــركة راجع : هودسن ، نظـــام الحشيشية ، هولنـــدا ، ١٩٥٥ (بالانكليزية) . فاروق عمر ، العراق والتحدي الفارسي ، بغداد ، ١٩٨٧ ، الفصل السادس

(٢٢) فاروق عمر ، الحركة الشعوبية ، بغداد ، ١٩٨٦ ،ص١٣٤ **فما بعد .**

(٢٣) أحلام النقيب ، سياسة الخليفة الناصر ، ص٢٠٣ فمابعد

(٢٤) بهاءالدين بن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢١٨

(٢٥) المصدر السابق . الاصفهاني ، الفتـح القسي ، ص٢٤٢ **فما بعد .**

(٢٦) راجع التفاصيل في محمد عبدالهادي شعيرة الذي يعتمـد على كتاب النسوي الموسوم سيرة السلطان جلالالـدين ، **القاهرة ١٩٥٣م**

الفصل الخامس

مظاهر الحياة الفكرية والعمرانية في عهد الناصر

إهتم الخليفة الناصر لدين الله بالحياة الثقافيةوالفكرية في عهده وشجعها ويبدو هذا الاهتمام والتشجيع من مظاهر عديدة :

أولها — إهتمامه شخصياً بعلوم الحديث وإشتغاله برواية الحديث ، وجمعه كتاباً في حديث الرسول (ص) سمّاه (روح العارفين)[1]

ثانيها — عنايته بجمع الكتب في خزانات للكتب في أماكن خاصة في المدارس أو دور معينة أو ربط .

ثالثها — ولعه في بناء مدارس جديدة (جامعات) لتدريس مختلف العلوم العقلية والنقلية وكذلك الربط ذات الاهداف الثقافية والعلمية .

أما النقطة الاولى فالمعروف أن الناصر سمع الحديث النبوي الشريف واسمعه للفقهاء ، وقد شجع العلماء للاجازة

والتسيع وخصص لهم الرواتب . وقد أجاز مجموعة من شيوخ الحديث منهم أبو الحسين عبدالحق اليوسفي الخليفة الناصر لرواية الحديث عنهم ، كما وأن الخليفة نفسه أجاز لجماعة من التلامذة والشيوخ رواية الحديث عنه ، فكانوا يتبارون في الحديث عنه في حياته . وقد ذاع كتابه في الحديث الموسوم (روح العارفين) بين الناس كما أرسل الرسل الى الشام ومصر لروايته باسم الخليفة .

أما عنايته بانشاء خزانات الكتب فتشير رواياتنا التأريخية الى بنائه خزانة كتب بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٥٨٩هـ/سنة ١١٩٣م ونقل اليها عشرة آلاف مجلدة . كما أنشأ خزانة أخرى في الدار المعروفة بدار المسنّاة والتي تعرف اليوم باسم القصر العباسي(٢) .

أما ولعه بتشييد المدارس فيحدثنا عنه ابن جبير عندما زار بغداد سنة ٥٨٠هـ/سنة ١١٨٤م حيث يقول :

« والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية . ولهذه المدارس أوقاف عظيمة ، وعقارات محبسة ، تتصير الى الفقهاء والمدرسين بها ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم .

ونهده البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات
شرف عظيم وفخر مُخلّد »[٣] .

إنّ هذه العناية بالحياة الفكرية أفرزت العديد من العلماء والفقهاء في مجالات العلوم العقلية والنقلية ، نشير الى بعضهم ، فقد برز في هذه الفترة من المؤرخين ابن الدبيثي وابن دحيه الكلبي وابن النجار وابن الجوزي وابن حمدون البغدادي وعبداللطيف يوسف البغدادي . ويشير الحموي وابن العبري الى العديد من الشعراء والأدباء والفقهاءوالأطباء وغيرهم الذين ظهروا في تلك الفترة[٤] .

إنّ الخليفة الناصر الذي كرّس همّته لعملية النهوض السياسي والحضاري للأمة أدرك بثاقب بصيرته أهمية الشعر في شحذ الهمم وإذكاء العزائم ولهذا فقد شعر الشعراء وجعل لهم سجلاً خاصاً بهم هو (ديوان الشعراء) منهم الحسن بن محمد بن عبدوس الواسطي الذي مدح الخليفة الناصربقصائد مشهورة وصار من شعراء ديوان الدولة العباسية . وسبط بن التعاويذي وابن الدنينير الموصلي المنذري وعبدالمنعم المصري النسطوري الشاعر الذي عمل سفيراً للخليفة في عدة مناسبات[٥] .

ومما يدل على رقي المجتمع العباسي في هذه الفترة ظهور كتب ومؤلفات حول مظاهر اجتماعية مثل الطعام وفنون

الطبخ فقد ألّف محمد بن عبدالكريم البغدادي سنة٦٢٣هـ/ سنة ١٢٢٦م كتاباً سمّاه (الطبيخ) ، مما يدل على اهتمام فئات المجتمع بأصناف الطعام والحلوى والشراب[٦] .

ولعلّ من مظاهر تقدم الحياة العمرانية[٧] في هذا العهد قصور الخلفاء والامراء وكبار موظفي الدولة وكذلك دور الضيافة التي أنشأها الخليفة الناصر والحمامات المتعددة والمتنوعة .

ففي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م بدأ الناصر ببناء قصر على شاطىء نهر دجلة للنزهة والاستجمام سُمي بدار المسنّاة الناصرية واهتم به اهتماماً بالغاً من حيث العمارة والتأثيث . كما عمّر الناصر قصراً آخر هو (دار الفلك) وزخرفه بزخارف بديعة حتى غدا داراً لا يضاهيه دار آخر . وهناك قصور أخرى بناها الناصر في ضواحي بغداد مثل (قصر الاحمدية) على الطريق بين بغداد وبعقوبة ، وقصر آخر في ضواحي أصفهان في غربي بلاد فارس .

أما بناء جوامع جديدة وتعمير الجوامع القديمة فقد شهد عصر الناصر فعاليات عمرانية عديدة من هذا النوع على رأسها بناء (مسجد قمرية) ببغداد والمسجد المسمى مسجد الخفافين في الوقت الحاضر . وكان الخليفة الناصر يستغل مثل هذه النشاطات لنشر اسم الخلافة وتوسيع نفوذ الخليفة

العباسي خارج العراق فقد أمر ببناء شباك في مدينة السامرة بفلسطين سنة ٦٠٦هـ ونقش عليه عبارات تخلد ذكراه في بلاد الشام حيث يشير النقش(٨) :

« ... هذا ما أمر بعمله الامام المفترض طاعته على جميع الانام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله الذي طبق البلا إحسانه وعدله وغمر البلاد بره وفضله . قرن الله أوامره بالنجح والنشر وجنوده بالتأييد والنصر ... » .

وقد كان لهذه الاعمال أهميتها في تعزيز نفوذه بين أمراء الاطراف وملوك الامارات وتحقيق تضامن هؤلاء الامراء مع الخلافة ، فقد كان هذا التضامن والاتحاد هو القدر الادنى الذي كان يهدف اليه الخليفة في كافة إجراءاته السياسية والادارية . كما كان لهذه الاعمال أهميتها المعنوية في تعزيز الثقة بالنفس بين المسلمين في الاقاليم حيث تؤكد دعم واسناد الخلافة لهم في ثباتهم ضد الافرنج في بلاد الشام .

وفيما عدا هذا وذاك فقد شهد العهد اهتماماً ملحوظاً ببناء الحمامات والتأكيد على النظافة مما يدل على رقي المجتمع وتقدمه وقد أشار ابن جبير سنة ٥٨٠هـ الى أن حمّامات بغداد لا تحصى وهي مطلية بالقار بشكل يُخيّل للناظر اليه أنه

رخام أسود صقيل • ونلاحظ كثرة (دور الضيافة) في عهد الناصر وكان بعضها مخصصاً للحجيج في موسم الحج والبعض الآخر للفقراء والمساكين والغرباء الذين تجري عليهم وجبات من الطعام في المواسم والمناسبات الدينية وخاصة في رمضان والمولد النبوي الشريف وأيام الجمع •

لقد كانت العناية بالمراسم الدينية واظهار اهتمام الخلافة العباسية بها وبعلمائها من أهم الوسائل التي يتوسل بها الخليفة للحفاظ على منصب الخلافة وعلى قيم المجتمع ومثله في مثل هذه الفترات الحرجة خاصة وأن المهتمين بالعلوم النقلية العربية الاسلامية وقفوا موقفاً مؤيداً للخلافة مناهضاً للأجنبي الأعجمي • وقد أشرنا سابقاً ان الخليفة الناصر اهتم بعلوم الدين ومنها الحديث وفي رواية أنه :

« إستناب نواباً يروون عنه وأجرى عليهم جرايات، وكتب للملوك والعلماء إجازات ، وجمع كتاباً في سبعين حديثاً وصل على يد السهروردي الى حلب » •

وقد روى الحديث عنه عدد من المحدثين من أمثال ابن الاخضر وابن الدامغاني وابن سكينة وابن النجار البغدادي• وقال الأخير عن الناصر :

« شرّفني بالاجازة ورويت عنه بالحرمين ودمشق والقدس وحلب وبغداد وأصبهان ونيسابور ومرو وهمذان »[٩] .

ومثلما كانت بغداد مزدهرة بالعلوم والمعارف فإنها ازدهرت بالفنون ونشير هنا الى فنون تزويق الكتاب وتذهيبه وزخرفته ، ويدل ذلك على اهتمام المجتمع بالكتاب ومايحتويه من علوم . وقد أشرنا سابقاً الى أن اهتمام الخليفة الناصر بالكتاب أدى الى اهتمامه بخزانات الكتب أيضاً حيث أمر بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية سنة ٥٨٩هـ ونقل اليها ألوفاً من الكتب المخطوطة النادرة ، ونقل كتباً أخرى الى مكتبة الرباط الظاهري على دجلة .

إنّ هذا الاهتمام بفن تزويق الكتب تطور الى مدرسة فنية عراقية خاصة بالمنمنمات التي زوقت بها العديد من المخطوطات في عهد الناصر وما بعده . وما تزال لدينا نماذج منها محفوظة في عدد من مكتبات اوربا والشرق وغالبيتها تعود الى عهد الناصر لدين الله .

على أن أجمل ما وصلنا في فن التزويق لفنان عاش في عهد الناصر وما بعده هو يحيى بن محمود الواسطي الذي نسخ مقامات الحريري ورسم منمناتها التي بلغت ما يزيد على تسعين منمنمة تتصف بالجمال والفن الرفيع الذي خلد اسم

الفنان العراقي البغدادي . وهذه النسخة محفوظة في الدار الوطنية بباريس[١٠] .

وفيما عدا هذه المخطوطة هناك مخطوطات أخرى منمنمة محفوظة في مكتبـات أخرى في القاهرة واسـتانبول وفينا وغيرها .

الخاتمـة

كانت مدة خلافة الناصر لدين الله من أطول المـدد التي حكم فيها خلفاء بني العباس على الاطلاق ، فقد كانت خلافته ستاً وأربعين سنة • وتصوره رواياتنا التأريخية الموضوعيـة بأنه « رجل عصـره » كما يصفه كتاب الفخـري في الآداب السلطانية ، بمعنى أنه الرجل المناسب في المحل المناسب والوقت المناسب •

والواقع فان المتمعن في مشـوار الناصـر لدين الله في ميادين السياسة والادارة والفكـر لا بد وأن يقسّم عهـده الى مرحلتين واضحتين :

المرحلة الاولى مرحلة الانفتاح حين شمّر الخليفـة عن ساعد العمل والجد لإنقاذ ما يمكن انقاذه من شؤون الدولة والمجتمع مستلهمـاً روح أجداده من خلفـاء بني العباس كالراشد والمسترشد والمتقي لأمر الله فكانت فترته عودة الى مرحلة النهوض والانتعاش في الخـلافة العباسـية ، عدها بعض المؤرخين بمثابة صحوة الموت قبل سقوط الخلافة بعد انتهاء عهد الناصر بحوالي ثلاثة عقود (حوالي ثلاث وثلاثين سنة فقط) •

حقق الناصر خلال هذه المرحلة إنجازات خطيرة في مجالات عديدة .. فقد قضى على النفوذ السلجوقي في العراق كلياً وأحبط أكثر من هجوم خوارزمي على بغداد وحقق وحدة الصف والتضامن بين أمراء الاطراف والاقاليم ، وكان عضداً وملهماً لصلاح الدين الايوبي في جهوده الهادفة الى الوحدة والتحرير. وكان الناصر في دفاعه عن العراق والخلافة يتصرف دوماً على اعتبار ان بلاد العرب الواقعة غرب العراق هي العمق السوقي البشري والمادي والجغرافي للعراق . ومن هنا يمكن تفسير ارتباطه القوي بالعديد من أمراء بلاد الشام والجزيرة الفراتية ومحاولة ضمهم الى تنظيم الفتوة الناصرية وارسال أوامر التولية والتشريف لهم وكانت مساندته المعنوية والمادية الرمزية لصلاح الدين خير مثال على ذلك . كما أن ارسال كتابه في الحديث الموسوم (روح العارفين) لقراءته في مساجد وربط الشام ومصر تعدّ مثلاً آخر على تعليقه أهمية كبيرة للروابط مع أقطار الوطن العربي .. كل ذلك يعتبر برهاناً على سياسته العربية التي أزعجت العجم فقابلوها بالعدوان على العراق حيناً وبالدس والتلفيق حيناً آخر .

ولم يكن حصول الخليفة الناصر على لقب « أسد بني العباس » ، في وقت كثرت فيه الالقاب والاسماء ، إعتباطاً ذلك لأنه أحيا هيبة الخلافة بعد أن ماتت تلك الهيبة في نفوس المتسلطين الاجانب وحقق وحدة جماهير الشعب من

خلال نظام الفتوة ومشاريع بناء المدارس والربط ودور العلم وخزانات الكتب • كما وان عهده شهد انتعاشاً اقتصادياً بعد فترة جدب واضمحلال •

أما المرحلة الثانية من حياته والتي تشمل السنوات الاخيرة من عهده فقد انعزل عن الناس بعد أن ساءت صحته وتعطل عن الحركة بسبب إصابته بالشلل وذهبت إحدى عينيه •

لقد عانى الناصر في سني حياته الاخيرة من أمراض الكلية والشلل والدزانتريا وأصبح نظره ضعيفاً وتوفي ليلة الاحد في أواخر رمضان أوائل شوال حسب اختلاف الروايات التأريخية ودفن في تربة الرصافة الى جانب جدّه المستنجد بالله ، وكان ذلك سنة ٦٢٢هـ[١١] •

وكان للخليفة ولدان هما أبو نصر محمد وأبو الحسن علي ، وقد أعطى ولاية العهد في البداية لإبنه أبو نصر ثم عدل عن رأيه ورشح ابنه الثاني أبا الحسن لولاية العهد • ويبدو أن الناصر قد اعتنى بتربيتهما وخصص لهما المؤدبين وأشرف على ثقافتهما وهي سنّة اتبعها معظم خلفاء بني العباس مع أولادهم وولاة عهودهم[١٢] •

ومهما يكن من أمر فإن خطة الناصر حول ولاية العهد لم تنجح فقد توفي سنة ٦١٢هـ ولي العهد الجديد أبو الحسن

علي مما أضطر الخليفة الناصر الى العودة بولاية العهـد الى ابنه الاكبر أبي نصر محمد فبايع له مرة ثانية . وغدا خليفةً بعد وفاة الناصر سنة ٦٢٢هـ ولقب (بالظاهر بأمر الله)[١٣].

لقد كان الخليفة الناصر لدين الله من خلفاء بني العباس المتأخرين الذين يستحقون التقدير لأنهم حققوا مكاسب مهمة للخلافة والمجتمع في وقت صعب إشتدت فيه الازمات .

هوامش الفصل الخامس والخاتمة :

(١) ابن المعمار ، الفتوة ، ص١٢٥ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٥١

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ص١٠٤ . القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص٢٦٩

(٣) رحلة ابن جبير ، ص١٨٣

(٤) بشار عواد معروف ، العراق في التاريخ ، الفصل ١٤ ص٤٩٨ . أحلام النقيب ، سياسة الناصر ، ص١٧٣

(٥) أحلام النقيب ، ص١٧٠

(٦) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص٩٩ فما بعد . أحلام النقيب ، ص١٧٨

(٧) راجع : مصطفى جواد ، العمارات الاسلامية في بغداد ، مجلة سومر ، ١٩٤٧ . المؤلف نفسه ، بغداد ، ص ٥٣ فما بعد .

(٨) أحلام النقيب ، ص١٨٨-١٨٩

(٩) راجع بشار عواد ، المصدر السابق

(١٠) راجع عيسى سلمان ، عن الواسطي وفنه في التزويق والزخرفة . المؤلف نفسه في كتاب العراق في التاريخ ، الفصل ١٥ (الفنون)

(١١) ابن الاثير . الكامل . ج١٢ ص٤٣٨ . ٤٤٠ . الفخري . ص٣٢٢ . الذهبي . دول الاسلام ، ص٩٥ . راجع اختلاف الروايات في : أحلام النقيب ، ص٤٥

(١٢) الكازروني . مختصر التاريخ ، ص٢٤٨

(١٣) ابن الاثير . الكامـــل ، ج١٢ ص٤٤١ . ابن دحيــه . النبراس ، ص١٧١

رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يبشره فيها بالفتوح التي سبقت تحرير القدس

من انشاء العماد الأصفهاني(1)

« ولقد كتبنا في الزَّبور من بعدِ الذِّكْر أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادي الصالحون » .

(الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد) ، وعلى نُصْرَتِه لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد) ، (وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ما اشْتَمَلَ على شِبْهِها كرام الصَّحائِف ، ولم يُجادَلْ عن مثلها في المواقف في الأيام الامامية الناصرية زادها الله غُرَراً وأوضاحاً ، ووالى البشائر فيها بالفتوح غُدُوّاً ورواحا ، ومكّن سُيوفَها في كل مأزِق ، من كل مارق ، ولا أخلاها من سيرة سَرِيَّة تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيدي أوليائها لتحمِيَ بالحقيقة حِمى الحقائق ، وأنجزها الحقَّ وقذف

---

(1) حول الرسالتين راجع : د. أحمد عبدالله الحسو وزميله ، رسالتان لصلاح الدين الايوبي ، دراسة وتحقيق ، المورد ، ١٩٨٧

به على الباطل الزاهق ، وملّكها هوادي المغارب ومرامي المشارق ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفاتح ، وأطراف أسنّتها لدماء الأعداء نوازح .
والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيّده ، وأظفر جُنْدَه الغالب وأنجده ، وجلا به جلابيبَ الظلماءِ وجدّد جُدُدَه ، وجعل من بعد عسر يسرا ، (وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً ، وهوّن الأمر) الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا وخوطب الدين بقوله : (ولقد مَنَنّا عليك مرة أخرى) فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة (والأخرى هذه التي عَتَقَ فيها من رِقّ الكآبة . فهو قد أصبح حراً ، فالزمان كهيئته استدار) ، والحق ببهجته قد استنار ، والمروق قد ردّ ما كان عنده من المتاع المستعار ، وغسلَ ثوبُ الفكر بما فجّر الفجر من أنهار النهار ، وشفى الله غليلَ صدورِ المؤمنين برقراق ماء المَوْردات البوادر . أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تَخْفَ عن القلوب الحافظة ، عزت سيما الاسلام بِمُسَوَّمِها ، وترادَفَ نصرُه بمُرْدَفِها ، وأُخِذَتْ القرى وهي ظالمة فترى مُتْرَفيها كأن لم تؤْوَ فيها ، فكم أقدم بها حَيْزوم ، وركض فأتبَعَه سحاب عجاجٍ مركوم ، وضرب فإذا ضَرْبه كتاب جراح مرقوم ، وإلا فان الحروب إنما عقدت سِجالا ، وإنما جمعت رجالا ، وإنما دعت خِفافاً وثقالا ، فإمّا سيوف

تقاتل سيوفا ، أو زحوف تقاتل زحوفا ، فيكون حد الحديد
بيد مذكرا وبيد مـؤنثا ، ويكون السيف في اليد الموحـدة
يعنى بالضربة الموحدة وفي اليد المثلثة لا يُغنى بالضرب مثلثا،
وذلك انه في فئتين التقتا ، وعَدُوَّتَيْنِ لغير مودة اعتنقتا .
وان هذه النُّصرة ان زويت عن ملائكـة الله فما جحـدت
كراماتُهم ، وان زُويت عن البشر فقد عُرفت قبلها مقاماتهم،
فما كان سيف يتيقظ من جفنه قبل أن ينبهه الصريخ ، ولا كان
ضرب يُطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه المصيخ، فكم
قرية كأنها هجرت الموت وبها التاريخ ، وكم طعنة تَخرُّ لهـا
هضاب الحديد ولها شماريخ .

والحمد لله الذي أعاد الاسلام جديداً ثوبُه ، بعد أن كان
جديداً حبلُه ، مبيضاً نصرُه ، مُخْضَرّاً نَصـله ، متسـعاً
فضلُه ، مجتمعاً شملُه . والخادم يشرح من نبأ هذا الفتـح
العظيـم ، والنصر الكـريم ، ما يشرح صـدور المؤمنين ،
(ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويكرر البشرى بما أنعم الله
به ــ من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر
الى يوم الخميس منسلخه ــ وتلك سبعُ ليال وثمانيةُ أيـام
حسوماً سخرها الله عليهـم (فترى القومَ صَرعـى كأنَّهم
أعجازُ نخلٍ خاوية) (وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ البـلاد على
عروشها خالية) ، ورايتُها الى الاسلام ضاحكة كما كانت

من الفرنج باكية) فيوم الخميس الأول فتحت طبرية (وفاض ريّ النصر من بُحَيْرتها ، وقضت على جَسْـرها الفرنج فقضت نحبَها بِحَيْرتِها ، وفي يوم الجمعة والسبت كُسـر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعـداءه بأيدي أوليائه أخذَ القرى وهي ظالمة • وفي يـوم الخميس الثاني سلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ، ورفعت بها أعـلام الايمان ، وهي أم البلاد ، وأخت إرم ذات العمـاد ، (وقد) أصبحت كأن لم تَغْنَ بالمروق وكأن لم تفتقرْ من الاسلام)• وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلـبُ ملك الفرنج الأسير جيشه المكسور مكسور ، والحديد ••• الذي كان في يدهم يضربُ وجهَ الاسلام ، قد صار حـديداً مسلماً يُفَرِّق خطواتهم••• وطبرية قد رفعت أعلامُ الاسلام عليها ، ونَكَصَتْ من عكا مِلّتهم على عَقِبَيْها وعمـرت الى ان شهدت يوم الاسلام وهو خير يَوْميْها ، (بل ليس من أيامهم يومٌ فيه خير وقد غسل عن بلاد الاسلام بدمـائهم ما كان يتخللها فلا ضَرَرَ ولا ضَيْر)•

فأمّا القتلى والأسرى فانها تزيد على ثلاثين ألفاً •

وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى الله حكمه فيهـم وقطـع بهم سيوف نار الجحيم ورحل الراحل منهـم الى الشقاء المقيم ، وقتل الابرنس كافر الكفار (ونشـيدة

النار من يَدِهِ في الاسلام كما كانت يد الكليم) ، (وافترّت النُّصرة عن ثغر عكا بحمد الله الذي يَسَّر فتحها وتسلّمتها الملّة الاسلامية بالأمان وعرفت في هذه الصفقة ربحها .وأما طبرية فافترتها يد الحرب فأنهَرَت الحرب جُرحها فالحمد لله حمداً لا تُضْرَبُ عليه الحدود ، ولا تَزَكّى بأزكى منه العقود ، وكأنه بيت المقدس وقد دنا بالبيت الأقصى من أقصاه ، وبَلَّغَ الله فيه الأمل الذي علم أن لَنْ يحصيَهُ وأحاط بأجله وأقصاه ، لكلٍّ أجلٍ كتاب ، وأجل العدو هذه الكتائبُ الجامعة ، ولكل عمل ثواب ، وثواب من هدى لطاعته جناتُ نعيمِه الواسعة ، والله المشكور على ما وهب، والمسؤول في إدامة ما استيقظ من جَدِّ الاسلام وهَبَّ .

وقد توجه من جانبه الأمير رشيدالدين دام تأييدُه في إهداء هذه البشرى نيابةً عن الخادم ووصفِ ما يسره اللّه لأوليائه من العزائم) والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : (طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا الفولة ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة والولد المظفر تقي‌الدين (ظفره الله مضائق) بصور وحصن تبنين ، والأخ العادل سيف‌الدين نصره‌الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر فينزل في طريقه على غزة وعسقلان ،

ويجهز مراكب الاسطول المنصور ويكثر عددها ، ويسير بها الى ثغر عكا (المحروس ويشحنها بالرجال ويوفـر سـلاحها وعُددها) (وما يتأخر النهوض الى القدس فهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال ، وقد آن أن يسفر فيه الهـدى عن صبحه) •

رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي الى الخليفة العباسي

يبشره فيها بتحرير القدس

من أنشاء القاضي الفاضل(١)

« أدام الله أيامَ الديوان العزيز النبوي الناصريّ ، ولاَ زال مظفر الجَدّ بكلّ جاحد ، غنياً بالتوفيق عن رأي كل رائد ، موقوفَ المساعي على اقتناء مطلقات المحامد مستيقظَ البصر والسيف في جَفْنه راقد ، وارد الجود والسحابُ على الأرض غير وارد ، متعددَ مساعي الفضل وإن كان لا يُلقي إلا بشكر واحد (ماضي حكم القول بعزم لا يمضي إلا بنسل غوي وريشٍ راشد) ولا زالت غيوث فضله (الى الأولياء) أنواءً الى المرابع وأنواراً الى المساجد، وبُعوث رعبهِ الى الأعداء خيلاً الى المراقب وخيالاً الى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فانها بحر للأقلام فيه سَبْح" طويل

---

(١) راجع : د. أحمد الحسو ، المصدر السابق

ولطف لحسل الشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطـر في شرحها مآرب ويسرى للأسرار في اظهارها مسارب ، ولله تعالى في اعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى ، وقد صارت أمـور الاسلام الى أحسـن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على أبين بصـائرها وتقلص ظل رجاء المارق المبسوط وصدق الله أهـل دينه فلما وقـع الشرط وقع المشروط [وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنـه والفوز معروضاً فقد بُذِلَت الأنفس في ثمنه ، وأُمِرَ أمرُ الحق وكان مستضعفا وأُهِلَ رَبْعُهُ وكان قد عيف حـين عفا (وجاء أمر الله وأنوف المارقين راغمة) فأدلجت السيوف الى الآجال وهي نائمة (وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين ، واستطارت لـه أنوار" أبانت ان الصباح عندهـا حيانُ الحين)] واستردّ المسلمون تراثاً كان عنهم آبقـاً ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقا واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأ أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم وشفيت بها وان كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم ، (ولما قدم الدين عليها عـرف منها سويداء قلبه وهنّأ كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتهـا من المـارق بحربه) وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهـذه المنقبة العظمى ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ولا يناجز من استملطه في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من

تمادى في عتبه) ، إلا لتكونَ الكلمة مجموعة ، والدعوة الى سامعها مرفوعة ، فتكون كلمة اللّه هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ، فكانت الألسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر ، [وإلاّ فانّ القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها ، ويضعف في أيديها مهر القوائم فتقضّها ، هذا الى كون القعود لا يقضي فرض اللّه في الجهاد ، ولا يرعى به حق اللّه في العباد ، ولا يوفى بهواجب التقليد الذي تَطَوَّقَهُ الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، (وخلفاء اللّه كانوا في مثل هذا اليوم يسألون لا جرم انهم أورثوا سرورهم وسريرهم خَلَفَهم الأطهر ، ونجلهم الأكبر وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة) ، فما غابوا لما حضر ، (ولا غضوا) لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص اليهم الى المضاجع ما اطمأنت به جنوبها (والى الصفائح ما عبقت به جيوبها) وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا ، والنهار به بصيرا ، والشرق يهتدي بأنواره، بل ان أبدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن واره ، فانه

نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف .

وكتاب الخادم هذا وقد أظفره الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصا ، فكلت حملاته وكانت (قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان عقوبة) من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفا ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون ، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت المارقين مهدومة ، وثيوبهم مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجتمعة على تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية ، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة ، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة الى أيدي أصحاب الميمنة .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الاولى فأمده الله بمداركته ، وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ،

وصرعهم صَرْعَةً لا يعيش معها بمشيئة اللّه نفر ، وأسر منهم من آسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح (وهم عن أنصاف محيل) فانه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار ، فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضاً بثار) فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت المطاعين ، وكم فارسيةٍ ركض عليها فأرسلها السهم الى أجل فاختلسه ، وفَغَرَت تلك القوس فاها فاذا فوها قد نهش القِرْنَ على بعد المسافة فافترسه] وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ، (وكان المروق مفقودا ، والاسلام مولودا ، وجعل الله ضلوعَ المارقين لنار جهنم وقودا) ، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ...

(وفي هذا اليوم أسرت سراتهم ، وذهبت دهاتهم) ولم يفلت منهم معروف ولا القومص وكان لعنه اللّه ملياً يوم الظفر بالقتال ، ويوم الخذلان بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه مَنْسَر الرمح وجناح السيف ، ثم أخذه اللّه بعد أيام بيده وأهلكه لموعده فكان لعدتهم فذالك ، وانتقل من ملك الموت الى مالك) .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشـر
عليها من الراية العباسية السـوداء صبغاً ، البيضاء صنعـاً ،
الخافقة هي وقلوب أعدائها ، الغالبة هي ، (وعزائم أوليائها)
(المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البِشْر ، وأشـارت بأنامل
العَذَبات الى وجه النصر ، فافتتح بلـد كذا وكذا وهـذه
أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفـدن،
وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر ، وبحار وجزائر ، وجوامـع
ومنائر وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يُحْرِزَها،
ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصد منها زيغـا ويزرع
ايمـانا ، ويقر عينه وعيون أهل الاسلام أن تعلق النصر منه
ومن عسكره بجـار ومجرور ، وان ظفر بكل سـور ما كان
يخاف زلزاله ولا زياله الى يوم النفخ في الصور . ولما لم يبق
إلا القدس وقد اجتمع اليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم
بسنعتها كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها من اللّه مانعتهـم،
وأن كنيستها الى اللّه شافعتهم ، فلما نازلها الخادم رأى بلداً
كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد وعزائم قد تألفت وتألبـت على
الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وان تموت
بغصته فزاول البلد العصا من جانب فإذا أودية عميقة ، ولجج
وعرة غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد
نزلت مكان الواسطة من عقد الدار فعدل الى جهة أخرى كان
للمطامع عليها مُعْرَج ، وللخيل فيها متولج فنزل عليهـا ،

وأحاط بها وقرب منها ، وضربت خيمته بحيث يناله السلاح
باطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها
ثم نازلها وبرز اليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها، فضمها
ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع أهلها فاذا هم لا يصبرون
على عبودية الجد عن عتق الصفح فراسلوه ببذل قطيعة الى
مده ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة ، فعرفهم في
لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التي
تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها
التي تضرب ولا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها نصالها ،
فصافحت السور بأكتافه فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ،
وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد اخلاده الى الأرض ويعلو
علوه الى السماء ، فشج مرادع أبراجها ، وأسمع صوت
عجيجها ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة ،
والحرب من النظارة فأمكن النقاب ، ان يسفر للحرب النقاب،
وان يعيد الحجر الى سيرته من التراب فتقدم الى الصخر
فمضغ سرده ، بأنياب معوله ، وحل عقده ، بضربه الأخرق
الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرةَ الشريفةَ حنينه
واستغاثته الى أن كادت ترق لمقبله ، وتبرأ بعض الحجارة من
بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض ، وفُتِحَ
في السور باب سد من نجاتهم أبواباً وأخذ ينقب في حجره قال
عنده يا ليتني كنت ترابا ، فحينئذ يئسوا من أصحاب الدور

كما يئسوا من أصحاب القبور وجاء أمر اللّه وغرهم باللّه الغرور .

وفي الحال خرج طاغيتهم وزمام أمرهم ابن بارزان سائلا أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة، وألقى بيده الى التهلكة ، وعلاه ذل المَلْكَة بعد عز المملكة، وطرح جبينه في التراب وكان حيناً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح اليه طرف آمل طامح ، ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ولم يسل سيف من يد إلا بعد أن تنقطع أو ينقصف ، وأشار الامراء بالأخذ بالميسور من البلد المأسور ، فانه إن أخذ حرباً فلا بد أن تقتحم الرجال الأنجاد ، (وتبذل أنفسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد) وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقر لفتكات ، واعتاق الحركات ، فقبل منهم المبذول عن يدٍ وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون) ، (وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها المرق الى أن صارت روضة جنان ، لا جرم ان اللّه أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم ، [فانهم ــ خذلهم اللّه ــ حموها بالأسل والصفاح (وبنوها بالعمد والصفاح) وأودعوا الكنائس بها بيوت الديوية والاسبتارية منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه ، ولا

يطرد لألاؤه ، قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توشيعه، إلا أن صار الحديد ، الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد (للرياض لهـا من بياض الترخيم رقراق ، وعمداً كالاشجار لها من التنبيت أوراق)]•

[وأوعز الخادم برد الأقصى الى عهده المعهود ، وأقـام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود وأقيمت الخطبـة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات يتفطرن للسجوم لا للوجوم ، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم ، ورفعت الى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة وظهرت قبور الأنبياء وكانت بينهم مكدودة ، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدهـا (وجهرت الألسن بالله أكبـر وكان سـحر الزيغ يقعدها) وجهر باسم أمير المؤمنين في قطبه الأقرب من المنبر ، فرحب به ترحيب من بر بمن بر ، وخفق علماه في حفافيـه ، فلو طار به سروراً لطار بجناحيه] •

(وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقيـة الثغور ، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور ، فان قوى العساكر قد استنفدت مواردهـا وأيام الشـتاء قـد مردت مواردها ، والبلاد المأخوذة المشار اليها قد جاست العســاكر خلالها ••• فهي بلا ترفد ولا تسترفد ، وتجم ولا تستنفد ، وينفق عليها ولا ينفق منها وتجهز الأساطيل لبحرها ، وتقـام

المرابط لبرها ، ويدأب في عمارة أسوارها ومرمات معاقلها وكل مشقة فهي بالاضافة الى نعمة الفتح محتملة ، وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة فلن يدعوا دعوة يرجو الخادم من اللّه انها لا تسمع ، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع ، وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولا بما سوى المشافهة تتلخص . فلذلك نفذنا لساناً شارحاً ومبشراً صادحاً ينشر الخبر على سياقته ، ويعرض جيش المسرة من طليعته الى ساقته) .

المصـادر والمراجع

المصادر الأصلية :

ابن تيمية الحراني النميري (ت٧٢٨هـ)
مسائل في الفتوة ، مخطوطة بمكتبة الدراســـات العليا/كلية الآداب

الحسيني ، صدرالدين (ت القرن السابع الهجري)
أخبار الدولة السلجوقية ، موســـكو ، ١٩٨٠ ، كذلك لاهور ١٩٣٣

ابن الدبيثي (ت ٦٣٧هـ)
التاريخ المذيل به على تاريخ بغــداد للســـمعاني (مخطوطة بمكتبة الدراسات العليا /الآداب) ٠
المختصرالمحتاج اليه٠٠٠ (٣) أجزاء تحقيق مصطفى جواد ، بغداد

الكازروني (ت ٦٩٧هـ)
مقامة في قواعد بغداد ، مكتبة الدراسات العليا/ الآداب (مخطوطة) مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس ، بغداد ، ١٩٧٠

ابن النجــار (ت ٦٤٣هـ)
تاريخ ، مخطوطة بمكتبة الدراسات العليا/الآداب

ابن الأثيــر (ت ٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٦
الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية بالموصل، القاهرة

ابن الأثير ، ضياءالدين (ت ٦٣٧هـ)
الرسائل ، بيروت ، ١٩٥٩م

الأربلي . عبدالرحمن سنبط قنيتو (ت٧١٧هـ)
خلاصة الذهب المسبوك . . بغداد ١٩٦٤م

الايوبي . محمد بن تقي‌الدين (صاحب حماة) (ت٦١٧هـ)
مضمار الحقائق وسر الخلائق ، القاهرة ١٩٦٨م

البنداري . الفتح بن علي الاصفهاني (ت ٦٤٢هـ)
سنا البرق الشامي ، بيروت ١٩٧١م
مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت١٩٨٠م

ابن تغري بردي ، (ت٨١٣هـ)
النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٢ جزءاً .

ابن جبير ، (ت٦١٤هـ)
رحلة ابن جبير ، بغداد ، ١٩٣٧م

ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)
المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدرآباد ، ١٣٥٩هـ

الحموي (ت ٦٢٦هـ)
إرشاد الاريب ، مصر ، ١٩٣٠
معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٧

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)
المقدمة وكتاب العبر ، طبعة بيروت

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)
وفيات الاعيان ، بيروت

ابن دحيه (ت ٦٣٣هـ)

النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، بغداد ، ١٩٤٦

الـذهبي (ت ٧٤٨هـ)
دول الاسـلام ، القاهرة ، ١٩٧٤
العبر في خبر من غبر ، الكويـت ١٩٦٣

ابن الساعي ، علي بن أنجب البغدادي (ت ٦٧٤هـ)
مختصر أخبـار الخلفـاء ، مصر ١٣٠٩هـ
نساء الخلفاء ، دار المعارف ، مصـر ، تحقيـق مصطفى جواد ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، الجزء التاسع ، مصطفى جواد ، ١٩٣٤

سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ)
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، الجزء الثامـن ، حيدر آباد الدكن ١٩٥٢م

السـبكي (ت ٧٧١هـ)
طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٧م

السـيوطي (ت ٩١١هـ)
تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، ١٩٦٤م

ابن شـاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)
فوات الوفيات ، مصر ، ١٩٥١م

ابن الصـابوني (ت ٦٨٠هـ)
تكملة اكمال الاكمـال في الأنسـاب والاسـماء والألقاب ، بغداد

الصفـدي (ت ٧٦٤هـ)
الوافي بالوفيات ، استانبول ، ١٩٤٩م

ابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ)
الفخري ... بيروت ١٩٦٦

ابن العبـري (ت ٦٨٥هـ)
تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، ١٨٩٠م

ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في أخبـــار من ذهب ، بيروت ، ١٣٥٤هـ ثمانية أجزاء

أبو الفــدا (ت ٧٣٢هـ)
المختصر في أخبار البشر ، طبعة مصر

ابن الفــرات (ت ٨٠٧هـ)
تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ، ٥ ، البصرة ١٩٦٩- ١٩٧٠

ابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ)
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، بغـــداد ، ١٣٥١هـ
تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقــاب ، ج٤ ، تحقيق مصطفى جواد ، دمشق

القزويني (ت ٦٨٢هـ)
آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠.

القلقشـــندي (ت ٨٢١هـ)
مآثر الانافة في معالم الخلافة ، الكويت ، ١٩٦٤

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية ، ١٢ جزءاً ، بيروت ، ١٩٦٦

ابن المعمار (ت ٦٤٢هـ)
الفتوة ، بغداد ، ١٩٥٨

المقـريزي (ت ٨٤٥هـ)
السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، ١٩٣٤

النويــري (ت ٧٣٢هـ)
نهــاية الأرب في فنون الادب . القاهرة ، ١٩٢٩

ابن الــوردي (ت ٧٤٩هـ)
تاريخ ابن الوردي ، القاهرة ، ١٢٨٥هـ

اليــافعــي (ت ٧٦٨هـ)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ، ١٩٧٠.

المراجع الحديثة :

د. أمين ، أحمــد
الصعلكة والفتوة في الاسلام ، سلســلة إقرأ .. مصر ، ١٩٥٢

أمين ، حســين
تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد، ١٩٦٥

جواد ، مصطفى
سيدات البلاط العباسي ، بيروت ، ١٩٥٠
عمارات القرن السادس .. مجلة سومر ، ١٩٤٦
دار المسنّاة الناصرية .. مجلــة كليــة الآداب/ بغداد ١٩٦١
الفتوة وأطوارها وآثارها ، مجلة المجمـع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٥٨

حسن ، حسن إبراهيم
تاريخ الاسلام السياســي والديني .. القاهرة ١٩٦٧

حلمي ، أحمــد كمال الدين
السلاجقة في التاريخ والحضارة ، الكويت، ١٩٧٥

خصبــاك ، جعفر
العراق في عهد المغــول ، بغداد ١٩٦٨

الدسـوقي ، عمر
الفتوة عند العـرب ، مصر ، بلا

الديوهجي ، سـعيد
الفتوة في الاسلام ، الموصل ، ١٩٤٠ .. تاريـخ الموصل ، بغداد ، ١٩٨٢

سـليمان ، أحمد السعيد
تاريخ الدول الاسلامية ومعجـم الاسر الحاكمة ، مصر ، بلا

العبـود ، نافـع
الدولة الخوارزمية ، بغداد ، ١٩٧٨

مهنـد ، بـدري
تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ، بغداد ، ١٩٧٣

القـزاز ، محمد صالح
الحياة السياسية في العراق في العصر العباسـي الاخير ، النجف ، ١٩٧١

محمـود ، حسن أحمد
العـالم الاسلامي في العصر العباسي ، دار الفكـر العربي ، بلا تاريخ

عمـر ، فاروق
الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، الشارقة، ١٩٨٣
العراق والتحدي الفارسي ، بغداد ، دار الشـؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٧

تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الاسلامية، بغداد ، ١٩٨٨

صلاح الدين والتحدي ، مجلة المورد ، ١٩٨٧
صور من صمود العراقيين .. مجلة الرسالة الاسلامية ، ١٩٨٨

العقدة الفارسية .. مجلة الرسالة الاسلامية ، ١٩٨٥

الحسيني ، محمد باقر
الكنى والالقاب على نقود مدينة السلام ، مجلة المسكوكات ، ١٩٨٠

لسترنج ، غي
بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ١٩٣٦ (مترجم)
بلدان الخلافة الشرقية ، بغداد ، ١٩٥٤

محمد ، عبدالمنعم رشاد
الخلافة العباسية ٥٧٥هـ - ٦٥٦هـ (اطروحة دكتوراه بالانكليزية) غير منشورة ، لندن

سوسة ، أحمد
دليل خارطة بغداد ، بغداد

حسن ، رمضان
مقاومة الخلافة العباسية للنفوذ السلجوقي (رسالة ماجستير غير منشورة/جامعة الموصل)

حسنين ، عبدالمنعم
دولة السلاجقة ، القاهرة ، ١٩٧٥م

الصياد ، فؤاد
المغول في التاريخ ، مصر ، ١٩٦٠م

فهمي ، عبدالسلام
تاريخ الدولة المغولية في ايران ، القاهرة ، ١٩٨١

العريني ، السيد الباز
المغـول ، بيروت ، ١٩٦٧

الشـيبي ، مصطفى
اصحاب الأخبـار ، آفاق عربيـة

الحسـو ، أحمد
رسالتان لصلاح الدين الايوبي ، المورد ، ١٩٨٧

النقيب ، أحـلام حسن
سياسة الخليفة الناصرلدين الله الداخلية (رسالة ماجستير/كلية الآداب/بغداد ، غير منشورة)

سـلمان ، عيسى
الواسـطي ... بغـداد
العمارات العربية الاسلامية في العراق (بالاشتراك مع هناء عبدالخالق)

تحرير العراق من التسلط الاجنبي ، الفصل ١٢ من العراق في التاريخ ، بغداد ١٩٨٣

شعيرة ، محمد عبدالهادي
تاريخ المغول والدول الاسلامية الاسيوية ، ١٩٦٠



طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٩

الغلاف : رياض عبد الكريم

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

السعـر دينـار واحد